

حكايات الحب اليومية

نعيم عطية

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٣٠ - يونية ١٩٧٦ - جمادى الثانية ١٣٩٦
No. 330 — June 1976

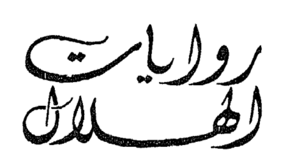
بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٢٠ مليما . عن الكميات المرسلة بالطائرة - فى سوريا ولبنان ١٥٠ قرشا ، فى الاردن ١٥٠ فلسا ، فى العراق ٢٠٠ فلس - فى الكويت ٢٢٥ فلسا - فى السعودية ٢٫٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحاد البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا - فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات او ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى . والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

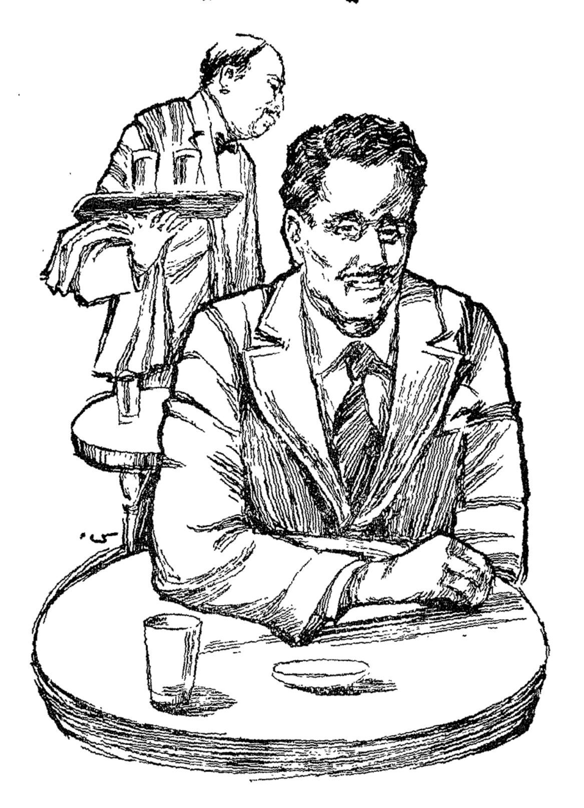
الغـــــلاف بريشة
الفنـــان جمال قطب





دار الهلال

حكايات الحب اليومية



حكايات الحب اليومية

ظل صامتا ، وقد علا وجهه الوجوم . أصابعه تنقر على المنضدة الخشبية . استكان الى جلبة الأصوات من حوله فى المقهى .

بعد قليل انفجر وقال بصوت محبط :

ــ هددونى هذا الصباح بالفصل !

استدارت نحوه بعض الرءوس .

قال :

ــ انتحل الاعذار كل يوم لأخرج . أتعرفون ماذا أفعل ؟

تعلقت الأنظار بشفتيه :

ــ أراقب زوجتى !

ترهل جفن عينه اليسرى :

ــ ارتاب فى سلوكها . أغار عليها .

توتر صوته :

ــ ضاق رؤسائى بأعذارى . ما عادوا يقيمون لها وزنا . تعديته على نائب الوكيل بفاحش القول . ماذا أفعل ؟

لم يتلق اجابة .

عاد يسأل :

ــ ماذا أفعل ؟

لم تكن لدى أحد فكرة عما يجب أن يفعل .

غاص فى صمته من جديد .

النرد بين أيدى شوقى وفريد يروح ويجىء على الطاولة .

لعب شوقى لعبة طيبة . انصرف اهتمام الجميع الى أصابعه. تحرك قطعه البيضاء .

وضع الجرسون الفنجال الساخن على المنضدة .

رشف سامى رشفة بصوت مسموع ، وقال :

ــ لى صديق قديم تستيقظ زوجته قبله أيام الشتاء ، وتبـادر فتستلقى على الأرض الى جوار السرير ، حتى يجد زوجهـا عندما

يصحو شيئا دافئا ينزل عليه ، فــلا تلمس قدماه العاريتان البلاط البارد .
توقف شوقى عن القاء النرد ، وسأل :
ـ أين وجد هذه المرأة ؟
رشف سامى رشفة أخرى متلذذا بأنه أثار الاهتمام ، وأجاب :
ـ يابانية هى .
هز شوقى رأسه ، وقال :
ـ آه ، أشياء مستوردة !
وعقب فريد :
ـ لا نقدر نحن على المستورد .
أومأ برأسه الى شوقى :
ـ العب .
قلب حسان باشكاتب المحافظة الجالس الى جوار النافذة صفحات الجريدة ، وقال :
ـ كلام كثير قيل فى خضوع المرأة لزوجها . وكثير من هذا الكثير تغلب عليه المبالغة .
رفع شوقى كتفيه ، ثم خفضهما :
ـ كلام معاد .
ألقى النرد على الطاولة ، وصاح غير مكترث :
ـ شيش جهار . العب .
تناول فريد النرد . ومضى قائلا :
ـ المستورد له ناس .
نقرت قطعتا النرد بطن الطاولة ، وتدحرجت احداهمـــا الى الحــافة ، وقفزت الى المنضدة المكسوة بغطاء طبعت عليه مربعات زرقاء .
قال صبرى تاجر الاخشاب .
ـ ليس المستورد على الدوام وافيا بالغرض ، يا سادة .
تمخط فى منديله بصوت مسموع ، ثم مضى يقول :
ـ تزوج صـــديقى مرسى امرأة ألمانية اسمها ريناتا أثناء بعثته للدراسة الكيمياء العضوية بجامعة برلين ..
دس يده فى جيبه بحثا عن منديله من جديد .
سأله حسان مستحثا :
ـ وماذا جرى لصديقك هذا ؟

قال صبرى بعد أن تمخط :
ــ عاد الى مصر مع زوجته ، وأقاما فى المعادى . ذات يوم ابلغت الألمانية البوليس باختفاء زوجها .
ــ كيف اختفى ؟
ــ قتلته الملعونة . قطعته بالمنشار الى قطع صغيرة دستها فى أكياس من البلاستيك ثم دفنت كل كيس فى مكان منفصل ، على طول المسافة من حلوان الى المعصرة .
ــ أكانت قد وقعت فى غرام ألمانى من أهل بلدها ، فأرادت ان تتخلص من زوجها المصرى ؟
ــ كلا ، أيها السادة . فجأة غرست سكينا فى عنق زوجها . ثم جثمت عليه وخنقته . نوبة من نوبات الغيرة . قتلته بسبب نظراته الى امرأة أخرى .

كانت القطع البيضاء تأخذ الآن بخناق عدد من القطع السوداء . وكان على فريد أن يشحذ كل مهارته فى اللعب للخروج من المأزق .
انبرى سعفان الجيولوجى القصير للحديث ، قال :
ــ وصديقى ابراهيم من رفاق المدرسة القدامى تزوج امرأة من جاميكا . ستتسألون أين عثر عليها . لكن لو عرفتم ان ابراهيم كان رحالة منذ الصغر . وحصل على الدكتوراه فى الجغرافيا عن دراسته لغابات أمريكا الجنوبية ، فانكم لن تسألوا .
استدار يشترى ورقة يانصيب من أحد الباعة . ثم عاد يقول :
ــ كان ثورا فحلا لا يهدأ له قرار .
سأله صبرى :
ــ وماذا حدث له ؟ هل عاش سعيدا معها ؟
ــ مضت تدس له شظايا الزجاج فى طعامه ، بقصد الاضرار بصحته ، وادخاله المستشفى لابعاده عنها .
ــ وعندما انكشفت فعلتها ؟
ــ سألتها حماتها لماذا فعلت ذلك بابنها . دافعت عن نفسها بأن زوجها كان ذا نشاط زائد . ويثقل عليها بطلبات لا قبل لها بها ، حتى أنه كان يزوغ من عمله ليلا لفترات قصيرة ويعود الى المنزل ليواجهها بمثل هذه الطلبات .
ــ وهل طلقها ابراهيم ، أو عاقبها ؟
ــ كلا ، ابراهيم مرح طيب القلب . قبل رأسها وقال سامحينى ياجوانا لم أكن أعرف . سأحل المشكلة .

ـ وكيف حلها ؟
ـ تزوج امرأتين أخريين على جوانا . وانتهت القضية .
هب الزميل الذى كان يسأل ماذا يفعل . وقال :
ـ أعرف ماذا سأفعل !
مضى نحو باب المقهى بخطوات سريعة ، وهو يعلن على الملأ :
ـ ربما سمعتم غدا اننى ارتكبت فعلا أخرق !
رفع الباشكاتب رأسه عن الجريدة ، وصاح :
ـ عندى فكرة .
توقف الزوج الغيور عند عتبة المقهى ليسمع .
جاءه صوت الباشكاتب يقول :
ـ اغرقها فى ماء مغلى . اسلقها . غطسها فى البانيو ودعها تغرق .
هرول الزوج المخدوع مبتعدا .
هتف الجرسون فى أعقابه :
ـ الحساب ، ياباشمهندس !
كان قد خرج الى الشارع وابتلعه الزحام .
قال صاحب المقهى بصوت يكاد يكون مولولا :
ـ أصبحت هذه طريقة مألوفة للافلات من دفع الحساب ، كل ليلة .
صدق الجرسون على كلامه قائلا :
ـ والبقشيش ، أيضا .
قال صاحب المقهى منهارا :
ـ سأفلس !
قال خيرى معاون المالية ، وهو يضرب كفا بكف :
ـ كم فى هذه الدنيا من مفارقات ، أيها الاخوة . وددت أن أقص عليكم ماحدث لجارى الأستاذ صفوان عبده .
قال الباشكاتب مستفسرا :
ـ صفوان عبده ، ذلك الموظف القديم بوزارة الأوقاف ؟ لعله بالمعاش الآن .
قال خيرى :
ـ أجل . اتهم زوجته التى لا تصغره الا ببضعة شهور بأنها على علاقة غرامية مع أحد الشبان . قال انه اكتشف هذه العلاقة بمحض الصدفة عندما عاد الى المنزل فى وقت متأخر من الليل فوجد

« سوسى » ـ بهذا الاسم يدللها ـ فى أحضان شاب فى سن أحفادها
سكت خيرى . فطالبه الحاضرون بمزيد من التفاصيل والايضاحات فمضى يقول بعد أن تجرع قرصا من دواء للنقرس :

ـ مسكين صفوان أفندى . كانت علاقته بزوجته طيبة ، الامر الذى جعله يثق بها ثقة عمياء . فى مساء ذلك اليوم عاد متأخرا . لاحظ انقطاع التيار الكهربائى عن مسكنه ، فطرق الباب طويلا ، الى أن فتحت سوسى . فوجىء بزوجته عارية تماما وفى حالة ارتباك . سألها عن سبب وجودها بهذه الصورة فلم تعطه اجابة شافية . واثناء مناقشة زوجته فى سبب انقطاع التيار الكهربائى عن مسكنهما دون سائر الشقق بالعمارة ، سمع « عطسة » صادرة من شخص فى غرفة النوم فأسرع الى مصدر الصوت ، وأشعل عود ثقاب ليستطلع الأمر ، فوجد شابا فى حوالى العشرين من عمره يقف عاريا هو الآخر ، فأمسك به واستغاث بالجيران ، فأسرعنا الى نجدته ، وأمسكنا بالشاب ، واقتدناه الى قسم الشرطة .

ـ وبماذا عللت الزوجة مافعلت ؟

ـ لم تنكر سوسى ، ولم تتنصل ، بل قررت انهما يلتقيان فى شقتها منذ فترة . وقد دفعتها الى هذه العلاقة ان زوجها حرمها من حقوقها الشرعية .

ـ هل كان الشاب من أولاد الجيران ؟

ـ كلا ، كان خنفسا من سكان حى بعيد . قابلها فى شارع الشواربى . اشترت ملابس داخلية وعطورا . وكانت تبحث فى حر الظهيرة عن تاكسى . قال ان سوسى كثيرا ما دعته فى غيبة زوجها ، وانها هى التى أغوته . وعندما صرخت سوسى فى وجهه مستنكرة ، نكس رأسه وقال مستدركا انها بعطورها ثبتت وجودها فى أعماقه . ولا عبرة بفارق السن ، فان العطور سريعا ما تحمل الحواس على جناحيها الى عالم أثيرى تنبهم فيه كل الفوارق . وقد أشاع هذا الاعتراف الرضا لدى سوسى المتصابية ، وزاد من حيرة صفوان المسكين واضطرابه ، فطالب باقامة الدعوى الجنائية عليهما .

علق أحد الحاضرين ، وربما كان عبد الرحمن بك الباشمحضر ، على ذلك قائلا :

ـ يتزوج الرجل المرأة كى تخدمه ، فيصبح هو خادما لها ولشهواتها أيضا .

قذف فريد المكعبين الصغيرين . مد يده وحرك قطعتين من قطعه السوداء ، وقال :

ــ تطالبنى زوجتى أن أفرش لها أرضية البيت بالقطيفة الحمراء ، والحمام بالرخام الفستقى . أقول لها « وهل أنا سلفادور دالى ؟ أنا لست سوى مفتش تربية فنية بالمنطقة الجنوبية ، يا امرأة » فتقول لى « وهل أنا أقل من جالا ، زوجة دالى غير الشرعية ؟ على الاقل أنا لك زوجة شرعية » .

نظر الى قطع شوقى المرصوصة . هز رأسه وقال :

ــ حظك رائع !

قال شوقى بآلية :

ــ محظوظ فى اللعب تعس فى الحب .

ــ كلام فارغ . العب .

جاس الجرسون بين المناضد المزدحمة بالزبائن حتى وصل الى عبد الرحمن بك .

وضع الشيشة على الارض أمامه . انحنى يسوى جمراتها . قال عبد الرحمن بك ، وهو يهم بوضع المبسم فى فمه :

ــ لم نرك أمس ياناضورى . أجازة ؟

ابتسم الجرسون ، وقال :

ــ وهل يأخذ مثلى أجازة ؟ لو بقيت فى البيت يوما بطوله تطير أبراج عقلى كلها .. زعيق الاولاد .. وزوجتى كل برهة تصرخ فى : أولادك وأولادى يضربون أولادنا .

ــ ماذا تعنى ياناضورى ؟

ابتسم فى أدب تقتضيه تقاليد المهنة . وقال موضحا :

ــ لى أولاد من زوجة سابقة . ولها أولاد من زوج سابق . ثم هناك أولادنا نحن . ماذا أفعل ، يابيه .. بالأمس كنت بالمحكمة . قضية النفقة التى رفعتها أختى على مطلقها كانت منظورة أمس ، تأجلت للمرة العاشرة .

اتجه بصينية القهوة الى الباشكاتب الذى اعتزل الشلة ، واستغرق فى قراءة الجريدة المسائية . انحصر انتباهه كله فى صفحته المفضلة « جرائم وتحقيقات » دبرت زوجة تاجر بقنا خطة للتخلص من زوجها ، والزواج من صديقها . سهلت لعشيقها وأعوانه دخول غرفة نوم الزوج . ذبحوه أمام طفليه . قالوا لها « مبروك » بعد انتهائهم من قتله . زعمت لرجال المباحث أن

عصابة هاجمت مسكنها وقتلت الزوج . قام رجال المباحث بتحرياتهم من قنا حتى المنصورة وكشفوا حقيقة الحادث .

لم يشعر بالجرسون يقترب منه . أجفل قليلا عندما احس بيده تمتد بالفنجال الى المنضدة وبصوته المبحوح يقول :

ــ طلبك يا أستاذ حسان . القهوة المضبوط .

بدأت الجريمة عندما استيقظ الحى الراقى بمدينة قنا على صرخات الزوجة تلطم خديها وتشد شعرها وتبكى معلنة أن زوجها تاجر البضائع المستوردة قد قتل . أبلغت الحادث لرجال الأمن . انتقلوا وعاينوا الزوج فوق السرير وقد فصل رأسه .

صاح تاجر الأخشاب فى الجمع ، كما لو كان يدلى باكتشاف :

ــ تذكرون فخرى رفيقنا القديم بالمقهى . تلمع عيناه حنقا وهو يقول : « تزوجت بعوضة .. حقا ، صدقونى ، بعوضة » . وتخيم على نظراته سحابة من الرعب المستتر ثم الحزن المقيم .

ردد بعض الحاضرين كلامه ضاحكين ، غير مصدقين :

ــ بعوضة ؟ زوجته بعوضة ؟! يا له من تشبيه !

وانبرى البعض بالتفسير والتحليل :

ــ ألأنها نحيفة رشيقة ، يقول أنها بعوضة ؟

وأضاف الساخرون :

ــ يبدو أنها زنانة . تزن على أذنيه ، وتطن طوال النهار .

وقال عزت محاسب شركة الاقطان :

ــ طلباتها لا تنتهى .

ثم غمز ، وقال متخابثا :

ــ ليس بالنهار فحسب ، بل وفى الليل أيضا .

وقال آخر :

ــ احترسوا من النحيفات . انهن ذوات مزاج . أنهن لا يشبعن حقا .

وعاد صبرى يقول :

ــ ولكن مهلا . لم يكن تشبيهه زوجته بالبعوضة لهذا السبب أو ذاك .. لم يكن لأنها نحيفة مسحوبة ، ولا لأنها زنانة ، بل لانها أخطر من ذلك بكثير .

تعلقت الانظار بتاجر الاخشاب .

ــ ان ذكر البعوض يلدغ فحسب ، أما أنثى البعوض فهى عندما تلدغ لا تكتفى بذلك ، بل هى تمص الدماء أيضا . كان يجدر أن يقول « صدقونى .. تزوجت مصاصة دماء » .

رشف الباشكاتب قهوته .

ذكرت الزوجة ان عصابة اقتحمت المسكن وذبحت زوجها أمامها وأمام طفليها . ثم استولى أفرادها على الحقائب التى يحتفظ زوجها فيها بالبضائع كما استولوا على مصاغها ، وفروا هاربين .

بدأ رجال المباحث تحرياتهم . جمعوا معلومات عن الزوج القتيل . تبين أنه من المنصورة ونزح الى قنا مع زوجته وطفليه للاتجار فى البضائع المستوردة . وكان أول خيط توصلوا اليه أن الزوجة على علاقة بموظف تعرف عليها فى المنصورة . وعندما سافرت الى قنا طلب نقله ليكون بجوارها .

اضطرب حسان ، وهو يقرأ هذه السطور فهو بدوره موظف وعلى علاقة بامرأة متزوجة ، ولكنه مضى يجرى المقارنات الصامتة بينه وبين عشيق تلك المرأة القاتلة . ان علاقته هو هادئة مستترة ، محترمة ومنظمة ، ولا غبار عليها . كل يوم خميس ينقطع عن الحضور الى المقهى . ليس بينه وبين امرأته تلك حب بل حاجة فحسب . اطمأن ومضى فى القراءة .

اختلس الموظف أربعمائة جنيه أنفقها عليها . وعندما علم أهله بذلك سافروا اليه وسددوا المبلغ المختلس ، وبدأوا السعى لنقله بعيدا عنها . رجح رجال المباحث أن يكون لقصة غرام الزوجة بالموظف علاقة بالحادث . وفى حوار سريع مع الزوجة بالمعلومات التى توصلوا اليها . انهارت واعترفت .

قال خيرى معاون المالية :

ـ زوجة مرزوق المحامى صديقنا تعانى من الكوابيس .. هل عند أحدكم علاج ؟

جالت فى وجهه نظرات مستفسرة . أردف موضحا :

ـ عندما تنام تطاردها أسود ذات أنياب نافرة . أول أمس ـ حتى تنجو من الوحش ـ دخلت مصعدا ضيقا صعد بها جبلا وعرا . ثم فتحت الباب الحديدى . وجرت الى أن رأت مقهى زجاجى الواجهات ، فدخلته ، وأغلقت الباب . تلفتت حولها ، فلم يكن هناك أحد . تنفست الصعداء ، فقد نجت ، واختفى الوحش . انزاح عن صدرها عبء ثقيل .. ثم هناك تلك المرأة . تراها ، كلما كانت ستصاب بالمرض ، عجوزا ، جاحظة العينين ، شعثاء الشعر ، عجفاء . تدفع باب المطبخ ، وتدخل . تقول لها « من أين دخلت ؟ كان الباب مغلقا » فلا تجيب العجوز . تنزوى فى ركن مظلم ، وتظل

تنظر اليهـــا فى صمت وترقب . وفى الآونة الاخيرة تطاردها امرأة أخرى شعثاء الشعر ، نحيلة ، طويلة القامة . اندفعت الى غرفتهـا ليلة أول أمس ، فتحت دولابها . أخذت تنبش ثيابها وتمزقهـــا وتبعثرها يمنة ويسرة . ثم هناك أيضا القط العضاض . ولن أطيل أكثر من ذلك .

واصل حسان قراءة جريدته . بدأ وكيل النيـابة فى تسجيل اعترافاتها . قالت انها وصديقها الموظف فكرا فى التخلص من زوجها حتى يتزوجها . ذهبا الى صاحب مقهى مجاور ، واتفقا معه مقـابل مبلغ مائة جنيه دفعاها اليه. واستعان صاحب المقهى بأحد الاشقياء. سلمتهما مفتاح الشقة . واتفقا معها على اتمام الجريمة فى الفجر .

جال الباشكاتب ببصره فى أرجاء المقهى . أصبح جوه ثقيلا زخما بدخان السجائر وأنفاس البشر .

وصلا فى الفجر ، ومعهما صديقها . فتحوا الباب ، ودخلوا غرفة نوم الزوج حيث انهالوا عليه طعنا بالسكاكين واستيقظ طفلاها على صرخات الأب ، وشهدا الجناة يذبحون والدهما .

ترك الصحيفة ، وشرب جرعة ماء ، فقد أحس حلقه يجف كعادته، كلما توترت أعصابه أو انفعل . دخل شحاذ أقبل على حسان ، ودعا له بالستر ، فنقده قرشا .

وفد صوت صبرى الى قائلا :

ــ وانت ، يا زيد ، لم تحك لنا شيئا عن أحوالك .

ابتسمت ابتسامة صامتة ، وحولت عنى دفة الحديث .

يعلم الله اننى لم أكن السبب فى الشجار الذى نشب بينى وبين زوجتى يوم السبت الماضى ، بل اننى أعزو ذلك الى الست نعمة جارتنا . فقد برعت هذه الجارة فى اثارة زوجتى . ولولا ضيق ذات اليد ورخص شقتى لبادرت الى البحث عن شقة أخـــرى هربا من متاعبها . فالست نعمة ــ أو ان شئت الست نقمة ــ كون زوجهـــا ثروة لا بأس بها من تجارة الطورشى ، ومنذ أن انتقلت الى جوارنا أحالت حياتى الى قرن من الفلفل الحريف ، فهى تعرف حق المعرفة أن زوجتى ليس فى مقدورها أن تجاريها فى شراء الفساتين والاحذية والشنط والبلوزات المزركشة المبرطشة .

عاد سامى يحادث الشلة عن زوجة صديقه اليابانية . قال :

ــ صدقونى . سمعت أنها تخدم زوجها فى الحمام . تنحنى أمامه ثم تخلع ملابسه ، وتأخذ فى « تصبينه » بعناية ، حتى لا يدخل شىء

من الصابون عينيه . وأثناء جلوسه فى « البانيو » لا تكف عن تقديم المشروبات المنعشة له .

أغلق شوقى الطاولة بعنف . تبادل وفريد الشتائم .

ـ أيها العجوز الذى لم تقبلك امرأة بعلا لها .

ـ أخرس ، يا من ملأت الدنيا حشرات ، هى أولادك .

ثم انتحى كل منهما ركنا قصيا ، وظلا متخاصمين . لم يكن هذا شأنهما الليلة فحسب .

انقض آخران على الطاولة . فتحاها ، وأخذا يرصان القطع السوداء قبالة القطع البيضاء . ثم ألقى أولهما النرد . مفتتحا اللعب .

أخرج شوقى منديله . مسح عرقه . واقترب من اللاعبين يتابع اللعب . وبعد هنيهة جذب فريد كرسيه ، وعاد يمد رقبته نحو الطاولة .

استغلت الست نقمة فى زوجتى تشوقها الأنثوى الى الاناقة لتملأ عقلها بأنه لابد أن أشترى لها فستان سهرة من « الكريب ساتان » وعندما قلت لزوجتى « وماذا ستفعلين به . نحن لا نذهب الى سهرات ، ولا نتردد على حفلات » ردت على ردا جافا قائلة « ليس هذا من شأنك . أننى أريده وكفى » .. « وكفى ؟ ومن أين أحضر الخمسة وعشرين جنيها ثمن فستان السهرة هذا ؟ أليس من الأجدر أن أدفع ماعلينا من ديون لدى البقال والصيدلى والجزار ؟! » .

جاء الجرسون . أخذ الجريدة من حسان ليحملها الى زبون آخر فى ركن قصى من المقهى كان قد نقده نصف قرش من أجل هذا .

تخلى حسان عن الجريدة . وقال لى :

ـ ما رأيك ؟ نجلس بالخارج ؟

أخذنا منضدة أمامية . وانضم الينا خيرى . خلع حذاءه ووضع ساقيه على كرسى أمامه . وتلفت يتعقب بنظراته كل فتاة تمر أمام المقهى . أومأ الى واحدة :

ـ غجرية ، كلها أنوثة .

أومأ حسان الى فتاة أخرى تلبس فستانا قصيرا ، حول خصرها حزام على شكل كوردون ستارة ، وينتهى بشراشيب .

ـ الموضة الجديدة تواصل انتصاراتها ، كما ترى ..

أضاف خيرى تحفظا :

ـ مع ادخال التعديلات .

قلت :
ـ تعديلات وتعديلات دون أدنى تغيير فى الجوهر .
قال حسان :
ـ معذورون شبان هذه الايام .. الاغراءات تحاصرهم .
سألت :
ـ هل تعتقد أن الحب سيفنى ؟ مع الوقت سيفنى ؟
قال حسان :
ـ مع بداية الربيع يبدأ موسم الطلاق .

عندما عدت من عملى لم تكن ثورة منيرة قد هدأت . ولابد أن الست نعمة قد انتهزت فترة غيابى فى الصباح لتلهب أعصاب جارتها ببضع كلمات بريئة المظهر ، وان كان جوهرها يقطر سما . وانفجرت فى منيرة قائلة « لن أبقى فى البيت . انت حيوان ! » فتظاهرت بأننى لم أسمع ، وسكت . « انت وحش » سكت . « انت عديم الاحساس ! » .

جاء الجرسون ووضع على المنضدة ثلاث زجاجات من المياه الفازية .

وقال :
ـ أعرف . أنكم بحاجة الى مرطب .
لم نعارض ، فالطلبات تقيد على الحساب .

أومأ الجرسون الى شرفة بالدور الثالث فى العمارة المقابلة بالناحية الأخرى من الميدان ، وقال ضاحكا :
ـ هذا الصباح جرت هنا فضيحة .
نظرنا اليه متسائلين . مضى يقول :
ـ استجابت أربع عشرة سيدة بدينة لاعلان عن معهد تخسيس . وجئن الى العنوان المكتوب . الدور الثالث من هذه العمارة ، حيث استقبلهن شخص ثم طلب أن تخلع كل منهن ملابسها وحليها وأن ينتظرن فى الحمامات الى أن يأتى الدكتور باندونى ، الاخصائى العالمى ، وبعد ساعة من الانتظار خرجت السيدات ليجدن الحقائب والملابس والحلى قد اختفت ومعها الرجل . شدت واحدة من السيدات ستارة معلقة ، التفت بها ، وأسرعت تطلب النجدة .
رأينا عبد الرحمن بك يغادر المقهى . ناداه حسان :
ـ بدرى ، ياعبد الرحمن بك . الى أين ؟
ـ ألا تعرف ؟

ابتسم حسان . جذب الباشمحضر كرسيا وجلس على مضض . ثم التفت الى قائلا :
ــ ما رأيك فى الحياة مع غراب فى قفص ؟
ــ والله ، أنه لشىء فظيع .
هز رأسه الاصلع متنهدا ثم انفجر قائلا :
ــ هناك ماهو أفظع .
سألته ماهو . فأجابنى منفجرا .
ــ أن تمضى صباحك ومساءك تقول للغراب رغم أنفك ، أجل رغم أنفك ، انت الطاووس فى جماله ! ما أبدعك !
هب واقفا ، وألقى عقب سيجارته الى الأرض وداس عليه فى ضيق . وعندما سأله خيرى أين يذهب الآن والليل ما زال فى أوله أجاب باقتضاب :
ــ أنا ذاهب الى القفص .
سأله حسان متظارفا :
ــ الى الغراب ؟
هز رأسه وقال :
ــ أجل . الذى أزعم له انه الطاووس فى جماله .
خطا بضع خطوات مترددة .
ــ انا ذاهب اليه ، لينشب فى مخالبه ، يمضى بمنقاره يدغدغنى ، وأنا أقول له ، أيها الطاووس ما أبدعك . ياللعنة ما أجملك !
قفز فى سيارة أجرة ، غابت عن أنظارنا عند المنحنى .
علق حسان :
ــ من قال له يأخذ القرد على ماله ؟
وضحك خيرى مدليا باحدى حكمه :
ــ نصيحة لاطالة الحياة الزوجية ، أن تخرج من البيت قبل أن تستيقظ زوجتك وتدخله بعد أن تكون قد استغرقت فى النوم . ولهذا فأنا آخر من يغادر المقهى .
كانت أم كلثوم تغنى « شمس الأصيل » فتجلب الى كثير من القلوب راحة مفتقدة . وتشيع فى الجو المحيط بنا عزاء ، وان العالم ما زال بالامكان أن تتآلف فيه الارواح والاجساد أيضا .
على الرصيف المقابل لمحنا صديقنا ممدوح العسال بصحبة زوجته . وقد كنت أراه يتأبط ذراعها . ويشد بيده على يدها ، وهما سائران فى الطريق . كان يمد ذراعه الأخرى ، ويفسح لهما

الطريق ، كلما هم أن يعترض سبيلهما أحد .

قلت لحسان :

ـ ها هو حب حقيقى بين زوجين .

أجاب خيرى :

ـ بالطبع ، يجب عليه أن يمسك بهـا جيدا . . وأن يفسح لهـا بذراعه الأخرى الطريق . ألا تعرف لماذا ؟ انها تنطح اذا أفلتت منه . وربما سببت لأحد أذى .

فجأة ، صفا الجو فى الميدان . طلع القمر وراء العمارات المقابلة على سماء بنفسجية يضيئها نور برتقالى داكن متوهج .

مضت تقول لى « انى ذاهبة الى أمى . لا أستطيع أن أحيا معك بعد .. بعد .. » انخرطت فى البكاء « بعد كل هذا الكلام السيىء الذى وجهته الى » قررت أن أفتح فمى بشىء . قلت لها فى غيظ مكتوم : « حسنا . اذا كان هذا هو الأمر . خذى هذه الخمسين قرشا كى تستقلى تاكسى وتذهبى لأمك » . وعندئذ نظرت الى منيرة بعينين تطاير منهما الشرر ، وصرخت فى قائلة ، وقد بلغت ثورتها منتهاها : « ايه ؟! خمسون قرشا فقط . هذه للذهاب الى ماما . أين اذن أجرة التاكسى فى العودة ؟! » .

هبت على الميدان نسمات دافئة ورطبة فى الوقت ذاته . ومع اغنية أم كلثوم يتنهد كل قلب حائر ويتثاءب . ويتوق الى نعاس لذيذ .

صندوق العقارب



صندوق العقارب

كان عائدا من الحجر البيطرى . الصحراء على الجانبين جافة وجدباء ، يحرق كثبانها لهيب الشمس .. مهمة لا تتكرر كثيرا . ثعابين وعقارب تملأ عشرة صناديق ، أحضرها قادم من طرابلس . قال انها للجامعة . لم يحضر شهادة صحية بخلوها من الامراض . احتجزتها سلطات المطار ، الى ان جاء الدكتور بدوى وأجرى الكشوف المعتادة . طريق طويل فى الذهاب والاياب ، وصداع يهشم الرأس . ود أن تكون فى جيبه علبة الحبوب . بالأمس قدم أقراصا منومة للنمر ، حتى يستطيع النوم . لابد أن يقدم تقريرا جديدا عن سوء معاملة الجمهور لحيوانات الحديقة . سبعة وثلاثون عاما قضاها فى الخدمة. سوء المعاملة يزداد . أعصاب الوحوش اضطربت . أين علبة أقراصه هو ؟ يصل العقل الى حد الجنون تقريبا نتيجة للانفعالات المتعددة والمخاوف التى تضغط من كل جانب . ثعابين وعقارب تملأ مئات الصناديق لاعشرة صناديق فحسب . عندما تخرج ــ ثمانية وثلاثون سنة مضت الآن ــ كان عليه أن يجد عملا . سمع عن مدير يكافىء من يتزوج احدى بنات أسرته بتعيينه فى وظيفة مناسبة ومضمونة .. تزوج ابنة أخت المدير . لم يكن أمامه غير ذلك كى يفلت من قبضة البطالة التى كانت تعتصره هو وأبناء جيله . حاول أبوه وكان يملك دكانا صغيرا للبقالة فى قريتهم اقناعه كثيرا بأن يترك القاهرة الجدباء ويعود الى القرية . قال له لن تحس هناك بالبطالة . دائرة البرنس بها بهائم كثيرة . تزوج ابنة عمك حفيظة وستلد لك أولادا يسدون عين الشمس . تذكر قولا قرأه عند هيرودوت .. فقد قرر المصريون القائمون بالحراسة فى اليفانتينا الهجرة الى اثيوبيا فلما علم الملك أبيسماتيك بذلك اقتفى أثرهم ، وعندما لحق بهم حاول كثيرا اقناعهم بألا يهجروا أولادهم ونساءهم . ولكن يقال ان أحدهم أشار الى عورته قائلا « أينما وجدت هذه سيكون لنا أطفال ونساء » وقد تمثل الملك أبيسماتيك لبدوى ، وهو يستمع الى نصح أبيه

صاحب محل البقالة بأن يسكن الكفر ، ولكنه وقد انفتحت عينا بدوى على نعومة الحياة فى القاهرة أبى الا أن يتشبث بها . آنذاك كان ثمــة من ينافسه على الظفر بالفتاة السمراء الناحلة ابنة أخت الباشا المدير . هب من أعماقه صوت يقول له « خصمك يريد أن يقتلك ، أقتله بهجمة واحدة » .

وفى ذات اليوم تقدم الى خالها يخطبها ، وحفاظا على المظهر عرض مهرا أيضا . فوافق الخال . نزل الدكتور بدوى ذلك المساء من بيت وجيدة فى أبى رواش وهو يقول لنفسه « بشىء من التدريب الخاص يمكنك أن تحول جسمك كله الى ترسانة قوية الاحتمال » ولجأ الى اليوجا ، يأتى من تدريباتها مايحقق له أن يحيا مع الآخرين وفى الوقت ذاته لا يكون منهم ، أو بعبارة أوجز أن يكون أو ألا يكون . تدريبات منتظمة يومية صـــــارمة تحقق انفصالا مدهشا ، يوصلك الى أن تتحمل أقصى الألم ولا يحس به جسمك وذلك بايهام بسيط . ان الذى يتألم ليس جسدك بل جسد آخر . تدريب شاق . ولكن من أجل هذه النتيجة تهون الصعاب كلهــا . وهى فى الحق ليست مجرد نتيجة ، ليست مجــرد مطاب ، بل ضرورة . من صغره لديه هذا الاستعداد . كان قادرا أن يستذكر دروسه بتركيز يحسد عليه فى اشد الأماكن صخبا . فقد كان يعيش أثناء دراسته الجامعية بحجرة أرضية فى حارة عامرة بمحلات سمكرة العربات والدوكو ، كان الخبط والنقر يأتى اليه ، لكنه ينحرف عن طبلتى أذنيه مبتعدا ، فقد مضى يقول لنفسه باصرار « هــذا الضجيج الذى تسمعه لست أنت الذى تسمعه . أنت تنصت ، وتنصت فحسب ، الى ما تقرأ . أنصت الى ما تقرأ . ليس ثمة وجود لغير ما تقرأ . يجب أن تقرأ » . ولم تكن هذه القدرة لدى الدكتور بدوى بنت ساعتها ، فقد كانت لدى أمه من قبل مثلها . سنوات تلو سنوات مضت بقطعة من اللوف الخشن تغسل صباح كل يوم جمعة جسد أبيه المترهل العارى ، وقد جلس القرفصاء فى الطشت . تسكب الماء الساخن بالكوز على كتفيه وعلى ظهره الجاف النحيل ، وتحتمل شتائمه اذا لدغتـــــه سخونة الماء . فى أول الامر لم تكن بقادرة على أن تحتمل منظر جلده الجعد المصفر ، مثل ورقة خريف ذابلة ، ولا ملمس العظام الناتئة . كان يكبرها بثلاثة وعشرين عاما . غشها بشاربه المصبوغ ، وبعض مظاهر الغنى . عندما بدأت تنبت شعيرات بيضاء لم تدركها الصبغة المتقنة التى مضت عليهــا بضعة أيام ، ظلت تتقيأ طوال الايام الثـــــلاثة

التالية . ومرضت . تقلصات فى الامعاء ، ومسمار حارق مستقر فى فم المعدة ، ومذاق فى الفم بمرارة لا تزول . زادت التجاعيد فى الوجه ، والغضون فى الجسد المترهل . وتحت العينين تكور انتفاخان من جراء عدم انتظام الكبد . لكن الام ماعادت تشغل بالها بذلك .. على هذا وطدت العزم ، ودربت حواسها . نوع من النفى الاختيارى . تعودت ملمس الجلد المغطى بالبثور أحيانا ، واللحم المترهل ، والعظام النافرة . كما تعودت رائحة البول الفائحة من لفائف الأطفال السبعة الذين أنجبتهم من الرجل الذى ظلت تكرهه حتى النهاية ، دون أن تبدى عن هذه الكراهية أية امارة . فى ليلة عرسه أحس بدوى بدوره احساسا غريبا نفاذا حتى النخاع . انه يحتضن صندوقا تتقلب بداخله عقارب وثعابين . سبعة وثلاثون عاما يحس بها تلدغه ثم تعود فتلدغه ، وتنهش جسده . ألفها . ما عاد يكترث بها . ولكن من وقت لآخر ، وعلى الأخص فى نومه ، يحس برغبة جارفة أن يصرخ . وهو يطلق أحيانا صرخة ، فتسأله زوجته بصوتها الذى يفح « مابك ؟ تصرخ كالملدوغ ! » يجيب مراوغا « لا شىء . أحلم بجدى سلامة » تقول له « ألف مرة سمعت منك هذه الحكاية » أول مرة رواها لها ــ وكان ذلك منذ ستة وثلاثين عاما ــ أنصتت باهتمام ، وهى تنتف حاجبها الايسر بالملقاط وتمسك بمرآة يد صغيرة بيضاوية الشكل ، تقربها الى وجهها كثيرا حتى تتأكد أن الشعيرات المنزوعة اجتثت من بصيلاتها ، كما تفعل كل صباح . قال : « جدى سلامة ، بعد أن اعتزل خدمة الجيش بالسودان ، عاد بحصيلة لا بأس بها من المعلومات عن السحر الأبيض ، أخذ يمارسها فى قريته قرب بنى سويف . ذات مرة حضر اليه أهل قرية نائية ، وقالوا له « نريدك أن تقطع شكنا باليقين . سنقتل البنت اذا كانت حاملا » وقال له أبوها على الأخص « ارحمنى . وددت أن يصاب عقلى بالشلل حتى أكف عن التفكير » دقق العجوز المحنك النظر فى وجه الفتاة ، واسترعى انتباهه على الأخص أن شفتها السفلى مدلاة فى بلادة وحسية ، ويكاد حلقها يبدو للناظر الى فمها . مد يده ، وجس البطن المنتفخ من فوق الثياب ، وسألها . اضطرب جفناها رعبا ، وهزت رأسها نفيا بشدة عدة مرات . كانت الصبية لا تخلو من الملاحة . التفت الى أهلها بهدوء ، وقال « اتركوها لى الليلة . وفى الصباح أخبركم بالنبأ اليقين » . وعندما أقبل الأهل فى الفجر مستفسرين ، قال « كلا ، ابشروا . العرض مصون »

سألته وجيـــدة . وهى تنتزع بالملقـــاط شعيرة نافرة من أعلى الحاجب « اذن ، ماذا وجد جدك فى البنت ؟ » ثم عادت وســـألته بارتياب « هل فعل بها شيئا ، لا سمح الله ، غير شريف ؟ » وأضافت محذرة — كما لو كان مسئولا عن أفعال جده — « أوعى ، يابوبى » — بهذا الاسم تدلل زوجها منذ سنوات حبهما الاولى ، نسبة الى الممثل الهزلى بوبى برين ، وكان آنذاك من نجوم الشاشة المبرزين — على أن بدوى هدأ من روعها ، وقال « أسرتنا من الشرفاء ، وان كان ينقصهم الاقدام ، يا امرأة » نفد صبرها ، فسألته « هيه ، ماذا فعل ، اذن ؟ » قال « بالليل ، عندما طلع القمر ، أقنع جدى البنت أن تخلع ثيابها كلها ، وأرقدها فى العراء » قالت وجيدة « قلة أدب » مضى بوبى غير مكترث « وضع جدى على مسافة غير بعيدة من الصبية بطيخة مشطورة » قاطعته وجيدة مفصحة عن ذكائها « فرصة، كان الوقت صيفا ، اذن ، وكانا وحدهما فى الليل . ماذا يريد أكثر من ذلك ؟ » مضى يستجمع خيـــوط قصته « أجل ، كان الوقت صيفا ، وهدوء الليلة المقمرة يخيم عليهما » عادت وجيدة تقـــاطعه « نفسى فى البطيخ ، يابوبى » مضى بوبى يقول فى صبر « قبع جدى عن بعد يرقب كل حركة تبدر من البنت النائمة . بعد قليل برز من فم الفتاة المنفرج لسان . لم يكن لسان البنت بطبيعة الحال . ثم أطل رأس أسود صغير ، ذو عينين مستديرتين برقتا فى ضوء القمر، وما لبث أن أنساب على تراب الأرض خارجا من جوف البنت — انساب ثعبان يتلوى ، زاحفا الى البطيخة المشقوقة فواحة الرائحة. صرخ جدى صرخة تخيف الثعبان عادة ، وجذب البنت ، وأدخلهـــا غرفته . استدار الثعبان حول نفسه عـــدة مرات ، وقد أحس بأنه فقد جحره ومأواه ، فزحف مبتعدا ، واختفى فى حقل قريب» نقززت وجيدة من هذه التفاصيل ، وكعادتها فى حالات تقززها ، صبت زجاجة الكولونيا على يديها وبين نهديها ، دون أن تنيل بوبى قطرة واحدة من الزجاجة ، بل ظلت توبخه على قلة ذوقه ، اذ كيف يحكى مثل هذه القصة المنفرة على سيدة مرهفة الشعور مثلهـــا وفى غرفة نومها ، ثم أردفت كعادتها أيضا تحقر من شأن أسرته كلهـــــا ولبس من شأن جده سلامة وحده . ولكنها عادت تشير — مثل الثعبان — الى استعار شهوتها للبطيخ فى غير موسمه . ومضى بوبى غير آبه يكمل القصة « كوفىء جده من أهل الفتاة مكافأة سخية . ومنذ ذلك الحين ، أى منذ تسعين عاما تقريبا ، وأهل الريف فى كثير من

مناطق بنى سويف والمنيا يتداولون هذه القصة . وصار جده سلامة واحدا من أســاطين الطب الشـعبى ، ولقب بالطبيب . كان قادرا على ربط الرجال وفتح فروج النساء العواقر ، وبأحجبته كان قادرا على الاكثار من نسل المواشى والابقار أيضا » وقالت وجيدة ضاحكة « ورثت موهبة جدك ، وأصبحت بدورك طبيبا ياطبيب » .

أنزل زجاج نافذة السيارة التى تقطع الطريق عائدا الى الحديقة . بعض النسمات يريدها أن ترطب جبينه ووجنتيه . الشمس على الصحراء المترامية حارقة . بعض صفائح البنزين التى أكلها الصدأ ملقاة على الرمال . مطب صغير . ثم آخر . طلبات وجيدة وابنتها باندورا لاتنتهى . يحس على الدوام انه يجرى ، يجرى ، وقد انقطع نفسه . يلهث على الدوام . بكلام معسول يحس بها تزحف على جسمه مثل أفعى ضاغطة ، والى جوارها باندورا — زوجته تهوى الاسماء غير المألوفة — أفعى صغيرة ذات صليل . يجرى على الدوام . تكاد الكلاب تلحق به . كابوس دائم . يستدير . فى يده طبق به عظام . يلقى اليهـــــا بالعظمة تلو العظمة . فاذا فرغ مافى الطبق تقفز عليه ، وتنهش أصابعه ، ثم يديه ، ثم ذراعيه ، ثم صدره . الجو حار للغاية . الشمس حارقة جدا . يفك ربطة عنقه ، يفتح قميصه . لا يموت المرء مرة واحدة فحسب . وبعد كل ميتة حياة أيضا . عندما هرب من البطالة فى الثلاثينات كتبت له الحياة . هكذا ظن . لكن الحياة تقود الى الموت من جديد . فى البيت مالبث ان هاجمه دبان ، لا دب واحد . أما كانت تكفيه وجيدة ؟ ما لبثت أن شبت باندورا ، لتخمشه بمخالبها أيضا . فى حالة من الاستسلام تركهما يفترســـــانه حتى الموت .

الشجاعة ؟! هيه !! وماذا تجدى الشجاعة لحظة لا تنفع فيهـــــا الشجاعة . ذات يوم رأى نفسه على صفحات « الأهرام » لم يكن هو بالضبط ، ولكن فى الصورة رأى نفسه بين أنياب دبين مفترسين . رأى نفسه بين أنيات دبين مفترسين حقيقة لامجازا . كانت الصورة التى نشرتها « الأهرام » صورة للحادث الذى هز الدنيا كلهــا . انها لرجل أراد أن يفلت من ملاحقة دائنيه فدخل يختبىء فى بيت الدب القطبى . ولكنه لم يلق هناك شيئا من حسن الضيافة . هاجمه دبان ، وقتلاه أمام العيان . فى الصورة يبدو الرجل فى حالة فزع . حاول المشاهدون والحرس لفت أنظار الدبين حتى ينقذوا الرجل ، دون فائدة . على ذات الصفحة من جريدة ذلك اليوم وقعت عيناه على خبر آخر . سكان أحد منازل حى كامب شيزار بالاسكندرية استغاثوا

بشرطة النجدة لانقاذهم من ثعبان ضخم طوله متر ، وجده أحد السكان فى الحمام . استدعى رجال الشرطة واحدا من قسم اللبان له خبرة بأساليب الرفاعية . تمكن من اخراج الثعبان من الشق الغائر الذى كمن فيه . وقد استدرجه حتى سجنه داخل حقيبة . وتم تأمين المنزل . وهو ، الدكتور بدوى ، من يأتى له برفاعى يخرج الثعبان الأسود ـ لابد أنه أسود ـ المختبىء هنا أو هناك فى شق من الشقوق المظلمة الغائرة من حياته الخربة ؟! هل يلجأ الى البوليس لكى يدلوه على ذلك الرفاعى بقسم اللبان ؟! فليبق البوليس بعيدا . يذكره البوليس بذلك الركن المنعزل من الحديقة ، حيث أقيم المنفى الذى ينقل اليه أغبياء وقتلة السيرك ليقضوا بقية عمرهم بعد أن اثبتوا عدم صلاحيتهم للعمل تحت الاضواء . فليبق البوليس بعيدا جدا عن كل ما تعلق بحياته ، وليغلق الباب ويحكم الرتاج على خصوصياته . أو ربما كان الأنسب أن ينشر فى الجرائد أعلانا ، مثلا تلك الاعلانات التى يطلب فيها ناشروها ثلاجة وستنجهاوس ست عشرة قدما بحالة جيدة ، أو أوبل موديل ١٩٥٩ ـ والوسطاء يمتنعون ـ أو شقة تمليك بأقساط شهرية على عشر سنوات ، أو آلة كاتبة . أو كلب وولف ، أو غسالة كهربائية ، أو سلفة بضمان ، أو غير ذلك . سوف ينشر اعلانا لا يتعدى خمس كلمات ـ ولن يهمه كم سيدفع من أجله ـ يقول فيه « مطلوب .. رفاعى .. لاستخراج ثعبان .. لعين » .. قد لا يكون هذا الاعلان مألوفا ، ولكن لم لا ينشرونه ؟ الن يتقاضوا ثمنا . نظر الى ساعته . ود لو يسرع السائق قليلا . سلحفاة النيل سكينة التى تعيش فى الحديقة منذ مائتين وخمسة وثمانين عاما مريضة منذ ثلاثة أيام . رفضت تناول الحشائش التى تقدم لها ، واستقرت فى مكانها دون حركة . يعالجها بالمضادات الحيوية . هذه هى المرة الاولى التى تمرض فيها سكينة . هاله كم من الاسماء سجلت على ظهرها . أكثر من مائة وخمسين طفلا من زوار الحديقة خطوا أسماءهم على الظهر العتيق . سيقدم الى المدير تقريره . سوء المعاملة جاوز كل حد . والحبوب المهدئة على وشك أن تنضب . فى المساء جلسة على المقهى . ثم دروب ملتوية رقطاء معتمة . بضع درجات هابطة ، مكان خافت الضوء . دخان تتلوى سحاباته الى السقف الخفيض . انه ليس عجوزا ، لكنه يحس بأنه يشيخ يوما بعد يوم ، وقبل الأوان ، فلا يجد مايتشبث به سوى حلم بالقدرة ، ووعد بعطاء من جسد نسائى غريب يمضى الى جواره جزءا من أوائل

الليل . عاجز هو أن يعامل وجيدة كامرأة . كل مرامه أن يرقد في هدوء الى جوار جسد أنثوى لدن غير عدوانى ، يعرف انه ليس ذلك الجسد الشاحب الجارح المعروق ، مثل ساق دجاجة ، جسد وجيدة الذى استنزف حياته هدرا . أكانت هذه الرقدة المحرمة والمرغوبة معا فرصة مؤقتة للهرب والنسيان ، أم لاستعادة القدرة على الخيال بامكان اعادة تشكيل الحياة على جناحي وهم الديد بالرجوع الى الشباب ؟ النوم والموت يتعانقان . حسرة على ربيع منقض . عجوز يذرف الدموع فى أحضان امرأة مخضبة بالاصباغ ، هذا هو فى الآونة الاخيرة . ماذا يحدث هناك ؟ لا شيء يحدث هناك . غيبوبة . متى تتحول هذه الجثة العطنة الى فراشة جميلة حرة ؟ اجل ، حرة . فى ذلك المكان يسترد حريته ، ولهذا فانه يسميه « بيت الاوهام » لحظات ثم يعود النهش واللدغ والرغبة الحارقة فى الصراخ . شد ربطة عنقه . فك أزرار قميصه . خيوط من العرق تسيل الى صدره فى خطوط ثعبانية رفيعة . أخرج منديله بسرعة ، ومسحها كما لو كان يحك من على جلده وشما . ضحك كبير أطباء الحديقة . الحرارة الشديدة تجعل العقل يكاد يسيح ، ولكن العقل يجب أن يكون قادرا على الامساك بالزمام واصدار الاحكام على الدوام . لنتصور مثلا حريقا شب فى مستشفى مكتظ بالنزلاء ، سنجد جميع الموجودين ، حتى أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم على وشك الموت ، يخرجون بسرعة هائلة . طاقة مذهلة من السرعة والقسوة كامنة فى صندوق داخلنا جميعا ، دون أن نشعر أو حتى نحلم بوجودها . صندوق العقارب ذاك بداخلنا أيضا ؟ سبعة وثلاثون عاما ولت . تركزت كل تدريباته على تحقيق تلك المعادلة العسيرة ، نقطة التعادل ، وها هو يمضى فى طريقه ، ويتسلق . تقدم اليه الشهر الماضى خريج جديد يطلب يد باندورا . يريد أن يقضى عمره الى جوار بركة التماسيح ، يدرسها ليتقدم — هكذا يقول — ببحث للدكتوراة فى موضوع الزواحف البرمائية . ومن خلال قلب باندورا ، التى يهوى أن يطلق عليها بنوره ، يريد أن يحقق طموحه . التاريخ يعيد نفسه فى بيت الدكتور بدوى . وجيدة لا تمانع ، بل تشجع ، وتقول لزوجها « يابوبى ، أليس الزواج ، ياحبيبى ، فن القوة المحكومة بالعقل ؟ أنسيت هذا ، يابوبى ؟ » وتضحك . أجل ، تضحك ، ولكن كبير الأطباء ضحك أيضا وبصوت أعلى ، وهو يلقى نظرة على الفواتير المقدمة من الموردين . ضحك .

وقال له « أهـــذا توقيعك ، يا دكتور بدوى ؟ » ثم رفع عينيه وضوبهما الى وجه الدكتور بدوى الذى بدا عليه بعض الارتباك .

وتوقف القـــلم فوق الاوراق . ود بدوى أن يهبط القلم قليلا ويضع الامضاء . تذكر الايدى التى تمد الى خارج الاقفاص وتمسك بيديه تودعه بعـد لقاء الصباح وهو يسير فى مماشى الحديقة متفقدا الاحوال مشرفا على تقديم وجبة الافطار . أحس انه خذل كل من وقفوا بجانبه ، وعين من اجلهم . تقلص قلبه فى قفصه الصدرى ، وهو يتابع تردد كبير الاطباء فى التوقيع . ترى ، ماذا يحدث لو فتحت أقفاص الحيوانات كلها مرة واحدة ؟ هذا ما سيفعله خفية .

ستأكل الحيوانات بعضها بعضا . وتختفى كل المعالم المريبة . نظر اليه كبير الاطباء ، ثم عرج الى الحديث عن الركن المنعزل من الحديقة . لا يدرى لماذا يحاول كبير الاطباء كلما تحدث معه أن يلمح الى ذلك المنفى الذى ينقل اليه القتلة والأغبياء . قال كبير الاطباء « تضم الحديقـــة الآن الاسد خالد الذى دربه السيرك القومى مدة سنة ، وفشلت معه كل المحاولات لتعليمه أبسط الحركات أو اطـاعة الاوامر التى يطلبها منه مدربه . وكذلك الفيلة نعيمة » توقف كبير الاطباء عن الكلام ريثما يشعل غليونه من ولاعته . نفخ الدخان من فمه عدة مرات . ثم نظر اليه من جديد وسأل « أتعرف حكايتها ، يا دكتور بدوى ؟ » انه ليتساءل حقا لماذا يوجه الحديث اليه دون ســـائر الحاضرين عندما يريد الاشارة الى المنفى ؟ أترى ، يقصد ذلك ؟ واذا كان يتعمد الاشارة اليه فماذا ينوى ؟ أهو يلمح الى شيء ؟ ما هـــو هذا الشيء ؟ الفيلة نعيمة ؟ آه ، أجل ، نعيمة ، بكل تأكيد يذكرها . من السرك نقلت لغبائها الشديد فى التعرف على دورها المطلوب أن تؤديه . ولكن هو ـ الدكتور بدوى ـ ما شأنه وهذه الانثى الحمقاء ؟ أيعرف كبير الاطباء شيئا عن حياته الخاصة ؟ أراد أن يثبت لكبير الاطباء انه على علم بسير العمـــل ، حتى فى ذلك الركن القصى من الحديقة ، فهز رأسه وقال « لم تعد تذكر من تدريبها الطويل فى السيرك الا حركة واحدة » سأله كبير الاطباء ، كما لو كان يستوثق من معلوماته « وما هى هذه الحركة ؟ » أجابه كتلميذ استذكر دروسه جيدا « حركة واحدة تقضى الآن اليوم بطـــوله ، وهى تكررها أوتوماتيكيا . انها تجذب نفسها الى الامام حتى نهاية الجنزير الذى يربطها بالارض » قال الطبيب المشرف على الصحة النفسية لحيوانات السيرك بالحديقة « الذكاء مطلوب فى الحيوانات أحيانا ، كما هو مطلوب

فى الآدميين ، خصوصا اذا كان المطلوب من الحيوان أن يؤدى دورا أكبر مما هيأته له الطبيعة ، كالعروض التى يقدمها السيرك » . قال كبير الاطباء الاصح أن تقول ان الذكاء مطلوب فى الآدميين ، كما هو مطلوب فى الحيوانات » والتفت كبير الاطباء الى بوبى وضحك . ثم قال له بخبث « هذه المرة سأوقع ، ولكن .. » وعاد يضحك . هل تنبه الى شىء ؟ هل تنبه الى الشىء الذى تدرب عليه حتى أتقنه ؟ رشفة من السم كل يوم ، ألم يكتسب راسبوتين حصانة ضد السموم ؟ الخريج الجديد لا يرغب أن يقدم مهرا . ولا أن يفرش حتى غرفة . سبعة وثلاثون عاما كفيلة بأن تغير امورا كثيرة . تحول الزواج الى ضحك ولعب . أصبح فنا أكثر تعقيدا وتكاملا . اغلق النافذة . الذرات تنفذ الى أنفه ، وتسبب له نزيفا ، فهو منذ صباه يعانى حساسية من الغبار . توجه الى الحديقة . امضى ساعة فى المرور على الاقفاص . وعند بركة التمساح أمضى وقتا أطول ، يتأمل جلده المجعد السميك وذيله . بضربة واحدة يقصم هذا الذيل فيلا الى شطرين . اطمأن على صحة الحيوانات . وقال لنفسه « لن تتوعك لو نقص زادها بنسبة الربع أو السدسين . ولن يتنبه أحد طالما أنه هو الذى يوقع على فواتير الموردين بالاستلام . أما أسعار الجهاز فقد تزايدت عما كانت عليه منذ سبعة وثلاثين عاما أضعافا مضاعفة وقد تغيرت لعبة الزواج ، أيضا . وأصبحت مثل « سكة أبى زيد كلها مسالك » . تنبه لأول مرة ، وهو فى جناح الجوارح الى أن وجه بنورة فيه بعض الشبه من وجه بومة الصحراء ، وهى من آكلة اللحوم ، ذات مخالب حادة ومنقار أشد حدة . كم كان وجهها وهى طفلة مستديرا نضرا ملائكيا . أما الآن تحت المساحيق التى علمتها أمها كيف تتفنن فى التجمل بها ، وعلى الاخص تلك الحواجب الرفيعة الطويلة الممتدة حتى الأذنين ، فانه يشفق على العاطل الجديد الذى يريد أن يكرر التاريخ ويبنى لنفسه الى جوار بركة التماسيح مستقبلا . توجه الى مكتب وكيل الحديقة . انضم اليهما بعد هنيهة مديرها الذى تعود أن يستمع آخر كل نهار الى تقرير شفوى عن أحوال الحيوانات ، وعن كل تطورات فى الحديقة . سأل عن الصناديق العشرة ومحتوياتها النفيسة . وأكد أن البحث العلمى يتقدم . شرع بوبى فى تقريره ، فتكلم عن أعصاب الوحوش التى اضطربت . ضحك المدير وقال له « هذا ليس بالامر الجديد » فعقب عليه فى اصرار ، قال « لكن ليس الى هذه الدرجة » وعلق

الوكيل بصوت بالغ النعومة « لو اقتصر الامر على أعصاب الحيوان لهان » رد عليه بوبى « الحيوان أهم » قال المدير كى يفض الحديث « عودتنا دائما ان تكون على الحيوان عطوفا » هز بوبى رأسه وقال « افتقدت الانسانية بين البشر ، وفى الحيوان وجدتها . فى القط الحنان ، فى الكلب وفى الحصان الوفاء ، وفى البوم الفنائية ورهافة الشعور » ضحك المدير راضيا فقد وجد الفرصة التى يتلمسها على الدوام لكى يتحدث عن نفسه ، فقال « ذكريات قديمة . فى شبابى أحسست أن وحيد القرن يعانى من الوحدة وراء قضبانه ، ويقف منكس الرأس . فأردت تسليته . قال لى مديرنا الاسبق وكان انجليزيا ، أحمر الوجه ، انه وحش . لا تنس ذلك . ومن المحتمل أن يقتلك بقرنه . لم يغير ذلك مما اعتزمت عليه . والحق اننى لم أجد منه ــ لست أقصد المدير الانجليزى ــ الا كل ود بعد أن أدخلت السرور الى قلبه . ضحك المدير راضيا عن نفسه . شاركه الوكيل الضحك نفاقا ومجاملة ، وأضاف « أليس فى ذلك مايثير الدهشة ؟ » أجاب الطبيب المشرف على الصحة النفسية لحيوانات السيرك بالحديقة متفلسفا « ان الذى يثير الدهشة حقا ، انه ما زال لدينا القدرة على الدهشة » جال كبير الاطباء ، الذى انقبض قلب بوبى عندما رآه داخلا ــ جال ببصره فيمن حوله ، وقال « مالنا نعدد حسناتنا ، كما لو كنا ندرأ عن أنفسنا اتهاما ؟ » ضحك الجميع ،حتى بوبى ضحك على مضض ، فقد استقرت عليه نظرات كبير الاطباء بعد تجوالها . هل اكتشف هذا الرجل الكالح ذو الوجه الذى شوهه جدرى قديم ثغرة يحاول توسيعها كى يتسلل منها ؟ جاءت القهوة تناول الدكتور بدوى معها الحبة الموصوفة لتصلب الشرايين . تطرق الحديث الى مواضيع يومية شتى . ولكن اذا بكبير الاطباء يحول دفة الكلام الى الوجهة ذاتها . أهو مقصود بكل ذلك ؟ فى الحديقة حيث نقلت تلك الحيوانات بعيدا عن الاضواء يلاحظ الاطباء أن بعضها مصاب بحالة هياج مثل الدببة الثلاثة الموجودة الآن فى قفص واحد ، والبعض استكان فى هدوء مثل الاسد سلطان الملقب بالقاتل الفيلسوف . والبعض الآخر لم يتحمل المنفى فمات منتحرا . ومع ذلك ، فزادهم ما زال يورد . قلب كبير الاطباء غليونه ، ومضى يدق به حافة المكتب ليخرج منه رماد التبغ العالق بتجويفه . ثم عاد يقول « للحيوانات المنفية مع ذلك جمهور كبير ، يذهب ليشاهدها ، ويقف أمامها ، ويلقى عليها نظرة شماتة أو نظرة رثاء » . لاحظ بدوى أن

عينى كبير الاطباء مثبتتان عليه . أحس بنظراتهما تنبش أعماقه . ارتعش فنجال القهوة بين انامله ، ادسنسف فجوة لا يريد منها أن يتسلل ، أن يحاصر ويدمر ؟ أليست له هو ايضا نقاط ضعفه لا يسمع عنه الكثير فى « بيت الاوهام » . ومن نعيمة على الاخص . أهى نظرات شماتة ، ام رثاء ؟ سارع بوضع الفنجال على المنضدة المجاورة ، وأخرج قرصه الابيض الصغير الذى يتناوله كلما ضاق تنفسه . دق باب الغرفة . دخل موظف المعاشات . نظراته زائغة . ولا يبدو عليه ميلا الى الحركة ، والبلادة على وجهه مرتسمة . نركز نشاطه كله فى لسانه . قال « ألم تسمعوا ؟ » التفت اليه جميع الموجودين مستفسرين . فقال وقد اكتسى مظهرا من الاهمية . فهو يعرف أكثر مما يعرفون « ساد الذعر شاطىء المعمورة . أمس . هربت ثلاثة أسود من سيرك متجول . واتجهت الاسود الهاربة الى الشاطىء . هرع المصطافون الى بيوتهم ، وبقيت الأسود الثلاثة تتجول قرب الشاطىء عدة ساعات الى أن لحق بها مدربوها وأعادوها الى أقفاصها بسهولة . وقالت مصادر البوليس ان الشاطىء ظل مهجورا بقية اليوم رغم اعادة الاسود الى أقفاصها » . دخل موظف المعاشات بعد ذلك الى الموضوع الذى جاء من أجله . دفع الى الدكتور بدوى استمارة المعاش التى يجب أن يوقعها بمناسبة قرب بلوغه الستين . أخذ بوبى يضحك على هذه السرعة التى قطع بها رحلة حياته . واقترب بها من المعاش . ضحك مرة ثانية . اضطرب فنجال القهوة فى يده من جديد . ارتسمت أمامه الاذرع الممدودة اليه عبر الاقفاص . كبير الاطباء ما زال ينظر اليه . انسكبت القهوة السوداء على سرواله . وقع الفنجال على الارض ، وتدحرج راسما على البلاط دائرة غير مكتملة . جحظت عيناه . شربات . شربات الفرح على الصوانى يطوف على المعازيم الذين يضيقون عليه الحصار بنظراتهم . هل اكتشفوا ما أتقن اخفاءه ؟ قال بصوت مخنوق « النافذة » الرمال تهب الى الداخل . تزحف كثبانها على البلاط . وتطمر مربعاته . دب الهرج فى الغرفة . وصاح الوكيل « احضروا كوبا من الماء . لمعت العينان الجاحظتان . زغاريد ، زغاريد ، تصم الآذان مثل عويل . أهو فرح باندورا ؟ ندت من الحلق شبه ضحكة متحشرجة . وصلت السيارة الى مشارف المدينة . أغلق النور الأحمر طريقها . تقدم ضابط وأجرى التفتيش . قال أحد الذين امتلأت بهم الحجرة « افتحوا قميصه » نزعوا رباط عنقه . الشعر

على صدره مثل ديدان سوداء دقيقة . « قليل من الهواء للدكتور »
صاح بذلك أحدهم ، وأضـــاف « قليل من الهواء الساخن النقى »
نظر اليهم الطبيب ، كما لو كان لا يصدق أن ثمة هواء نقيا يمكن ان
يتحقق . ومن خلال ضحكة متقطعة جاءت كلمته مبتسرة ومبحوحة
« الشعابين » كانت نظراته تدور فى الحاضرين زائغة . واحد فهم وقال
لنفسه « لابد أنه يشير الى شركائه فى الاوراق المريبة » .

الدفتر الممنوع



الدفتر الممنوع

الاخصائى والناظرة

أشعل الاخصائى الاجتماعى غليونه . ألقى عود الثقاب على الارض، دون أن يعبأ بالاستياء المكبوت الذى ارتسم خفيفا على وجه السيدة الممتلئة التى يتصدر مكتبها الغرفة .

ـ المؤثرات الخارجية على الحواس شـديدة الوطأة ، ياسيدتى الناظرة . ماذا تنتظرين من آنسة فى العشرين من عمرها تعيش شأن بنات جنسها فى غابة عصرية ؟ .

انطفأ الغليون مرة ثانية على الرغم من النفثات التى عالجه بهـا الاخصائى الشاب . فأشعل عود ثقـاب . مدت الناظرة اليه يدها بطقطوقة ليضع فيها عود الثقاب المنطفىء ، لكنه كان أسرع منهـا فى القائه على السجادة الباهتة .

استطرد يقول :

ـ ماذا تتوقعين أن تقرئى فى مذكراتها الخصوصية ، وهى الفتـاة التى تتطلع الى حقهـا المشروع فى متع الحياة ومباهجها ؟ .

ندت من النـاظرة آهة استياء من تكرار الاخصـائى لعـادته السيئة .

مضى يقول غير آبه :

ـ انها ليست راهبة ، بل هى أعصاب تنبض .

دقت الناظرة الجرس بعصبية تدعو الفراش لتنظيف الارض من حول الاخصائى الاجتماعى ، الذى واصل كلامه :

ـ اذا تصفحنا ، ياسيدتى الناظرة ، مذكرات الآنسة فيفى ، ماذا تجدها قد سجلت من مشاعر ؟

قالت الناظرة بصوت صارم :

ـ قباحات .

مضى الاخصائى يقول :

ـ انتابت المدرسة الشابة عاطفة نحو رجل اشـارت اليه فى

مفكرتها . وكانت ترجو أن تنتهى الى علاقة شريفة .
رفعت الناظرة حاجبيها الرفيعين مستنكرة :
ـ نسيت أنها كانت مدرسة بنات ؟
راح يدخن غليونه قليلا . ثم قال :
ـ مضت فيفى تسجل سلوك ذلك الرجل نحوها ، وتحكم على سلامته .
ندت من الناظرة ضحكة ازدراء ، وهى تتأمل المساحيق على وجهها فى مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها .
مد الشاب ساقيه على السجادة ، ونفث دخان غليونه نحو سقف الغرفة ، وقال :
ـ لا تضحكى ، يا سيدتى . عانت الآنسة فيفى آلاما مبرحة لما اصطرع فى نفسها من نوازع متضاربة ، حتى اذا تبين لها أن قصد ذلك الرجل غير برىء ، وانه أخلف ظنها ، لفظته .
أفلتت من الناظرة ضحكة خليعة ، وقالت :
ـ لفظته ام لفظها ؟
ماتت الضحكة على شفتيها عندما رأت الجدية تكسو وجه الاخصائى .
ـ أجل ، لفظته ، يا سيدتى . داست على ضعفها . سارت على الشوك بقدمين عاريتين ، وطردته .
ابتسمت الناظرة ابتسامتها الملتوية . لمعت سنتها الذهبية فى الجانب الايمن من فكها العلوى . وسكبت فى كلماتها قطرات من سمومها :
ـ يبدو أنك متيم بالآنسة ، يا أستاذ !
دق الجرس فى الفناء .
نهضت الناظرة . انتشل الاخصائى الاجتماعى حقيبة كتبه من الارض وشد قامته القصيرة واقفا . تمهل فى طريقه الى الباب وقال :
ـ ما الذى يدل عليه منحى تفكير تلك الفتاة ؟ ان دل على شىء فعلى متانة خلقها . كانت تجربتها تجربة رفض السقوط .
رمته الناظرة بنظرة عانس أجدبت :
ـ فليرزقها الله بابن الحلال يستر عرضها ، يا أستاذ ، ويغطى فضيحتها .
عند الباب ، دلق محتويات غليونه من طباق محترق .

المرافعة

دوى صوت المحامى فى قاعة المحكمة يقول :

ـ يكفل الدستور حرية التفكير والاعراب عن الرأى . فلكل انسان الافصاح عن فكره بالقول أو بالكتابة أو بغير ذلك فى حدود القانون .

أشار الى الآنسة فيفى ، وقال :

ـ فاذا خلت موكلتى الى نفسها ،ياحضرات القضاة ، وظلت تخاطب ذاتها وتناجيها فى مفكرة خاصة ، وتخففت من القيود فى التعبير عن خطواتهـا كفتاة فى سن ماقبل الزواج ، وتبسطت فى هـذا الحديث التبسط الذى يلجأ اليه المرء عادة كلما خلا الى نفسه ، فاستهدفت أن تنفس عن نفسها أو تحاسبها ، ثم استودعت تلك المفـكرة مكنون سرها ، فانه لا تثريب عليها فى خلوتها هذه .

ثم التفت الى ممثل الادعاء وقال :

ـ لا يحق لاحد التسلل الى الهواجس البشرية فى مخبآتها .

كيف بدأ كل شىء

تذكر فيفى ذلك اليوم جيدا . حضر الى المدرسة رجل جهم ليحقق شكوى مبلغة الى المنطقة ممن سموا أنفسهم «جماعة مكارم الاخلاق» وأثناء التحقيق انتقل ذلك الرجل الى القسم الداخلى ، وأجـرى التفتيش على دواليب المدرسات باحثا بين محتوياتها عن « كتب بذيئة محرمة » ورد ذكرها فى الشـكوى . وفى دولابها عثر على « مفكرة » خاصة .

قالت فيفى للمحكمة :

ـ كانت فى حقيبة قديمة دسستها بركن قصى من الدولاب تحت ملابسى . لم أكن أخفى على أى حال صورا خليعة أو كتـابا جنسيا شـاذا .

نظرت الى محاميها ، فأومأ لها مشجعا على الحديث . استطردت تقول :

ـ كانت المفكرة تحتوى خواطرى وانطباعاتى وأحكامى على الناس . لهذا عندما طلب وكيل النيابة تفتيش دولابى قبلت من بادىء الامر . بل قدمت بيدى محتويات الدولاب ، وبها مفكرتى الخاصة .

اختلج صوتها وقالت :

ـ لكننى لم أقدم اليه المفكرة ليقرأ تفاصيلها . كنت أعتقد أنه ما أن يعرف أنهـا مذكرة خاصة بى سيردها الى دون أن يفحص

مادونت بها . فهذا ليس من شأنه ، وليس من شأن أحد . انه من شأنى أنا وحدى .

اتسعت حدقتاها ، واسود ما حولهما ، وصاحت فى القضاة :

ــ هل ارتكبت جريمة بتدوين خلجات نفسى فى لحظات وحدتى ؟!

اشتد الانفعال بالآنسة فيفى ، فانهارت تجلس على مقعدها ، صارخة :

ــ ما شأن الدنيا كلها بما يدور فى نفسى !

نضح جبينها الأملس العريض بحبات دقيقة من العرق .

صفحات من المذكرات

قلب ممثل الادعاء أوراقه ، ولوح بكراسة حمراء . قال :

ــ فلتسمح المحكمة أن أقرأ بعض الفقرات من المفكرة لترى أى غى تردت فيه المتهمة .

ثم شرع يقرأ :

ــ « ... كل أملى أن أنجح فى مسعاى . الطريق صعب ، شائك ، اقدر ذلك ، محفوف بالمخاطر ، لكننى أعرف ما أريد . أعرف ما أستطيع أن أقدمه ، وما لا أستطيع أن أقدمه . على ان اناور . فحسب . أن أجرب خصمى ، حبيبى ، أن أناوره ، حتى أحظى به زوجا . أتوق الى شفتيه الخشنتين الحارقتين ، الى صدره غزير الشعر . أتوق أن أندمج معه فى وجود واحد ، بين جدران غرفة واحدة ، بيتنا » .

صاحت الآنسة فيفى معترضة . أوقفها رئيس المحكمة بنظرة قاسية . وقال :

ــ فى المحكمة لكل من الطرفين أن يتكلم بحرية .

مضى ممثل الادعاء يقرأ من المفكرة الحمراء :

ــ « أحس فى نظراته شيئا مبهما . رغبة ؟ ومضة مكر ؟ لكنه يريدنى . يشتهينى ؟ ما المانع لو أصبحت شريكة حياته ، لو ضمتنى ذراعاه القويتان ، وأخذنى الى فراش الزوجية ؟ نظراته الى جسدى نهمة ، الى نهدى ملتهبة ، الى ساقى ثاقبة . أقول لنفسى هذا لا يضيرنى ، مادمت سألزم حدى ، وألزمه هو أيضا حده ، حتى يطلب يدى . وهذا ما سأمهد له » .

لم تحتمل الآنسة فيفى . هبت تصيح :

ــ كفى نبشا فى أعماقى .

نهرها رئيس المحكمة فعـــــادت تجلس وقد شـــبكت يديها فى حجرها .

تعرفت به فى حفل قران احدى زميلاتها . كان مهندس الكهرباء فى الضاحية . دعاها للخروج معه ، لبت دعوته . دعاها الى شقته ، لم تمانع . بين جدرانها كانت تحس بالتوجس . لكنه كان يحدثها عن عشهما ، عن المستقبل ، عن آمال حلوة ، فكانت تلين .

عاد الصوت يصدم أذنيها :

ــ « انى بين الاقدام والاحجام أعانى أشد المعـــاناة . تغلى دماء الرغبة فى عروقى ، وتتأجج غرائزى . ثم يعلو صوت العقـــل . بزأر الضمير فى أعماقى كفرملة سيارة مسرعة على الأسفلت ، وأتوقف . أمسك باللجام ، وأتراجع . يتصبب عرقى من وطأة الجهد المبذول كى لا أمضى فى الشوط حتى النهاية . على وسادتى بالليل ، أبكى .. تبلل دموعى خـدى . وأقول لنفسى الى متى هـذا العذاب ؟ متى أصل الى بر الامان ، أو على الاقل متى أقطع الشك باليقين ، وان كنت أرهب لحظة اليقين هذه ، خشية ألا تكون لصالحى .. »

نظر محامى الآنسة فيفى الى موكلته . كانت شاردة البال ، تعانى تمزقا داخليا ممضا ، وتهيم فى ذكريات بعيدة . بدأ عنقها ســـامقا وشعرها الاسود متهدلا على كتفيها . ازدادت نحولا ، واشتد شحوبها .

ــ « .. أحس بالاحباط . يقولون هذا مرارة الحب ، وأقول متى أذوق حلاوة الحب . متى ؟ أبتغى الحب المستكين . أريد أن أنجب له أولادا ، أن أسير معه على طريق الحياة المشتركة جنبا الى جنب ، ارعى شئونه وأخدمه . أتعهد مأكله وملابسه وأمور بيته ، بيتنا . متى أكون زوجة ؟ متى أكون أما ؟ هل سأظل على الدوام عشيقة ؟ سئمت . أكاد أفقد صوابى ، لا أستطيع البعاد عنه . هل سأفقده يوما ؟ أخشى ذلك كل الخشية . لا أريد أن أكون السبب فى فقـده ، هذا الحبيب القاسى ، العابث ، اللاهى عن أعماقى الممزقة ، وعن أمواج الهوى الجياشة فى وجدانى . ترى ، أيعنى فحسب بجسدى الذى يرتعد تحت لمساته ويتأوه من ضماته الدافئة ؟ .. »

اجتماع عنـد المدير

ــ رشف المدير رشفة من شراب الكركاديه . دق على المكتب بقبضته ، وقال :

ــ ألا تخضع الاقامة فى الاقسام الداخلية بمساكن المدرسات لرقابة يقظـة ؟

قال نائب المدير ، وهو يثبت على انفه الأقنى نظارته السميكة :
ــ الاشراف دائم ، يا سيدى المدير .
قالت الناظرة ، وهي تربت على شعرها البنفسجى بيدها :
ــ التعليمات صريحة فى هذا الصدد .
قال كبير المحققين :
ــ كشف التحقيق القنـــاع عن علاقة غير مشروعة عقدتها الآنسة فيفى . أنها على علاقة بشاب تقابله خارج المدرسة . وقد أثبتت فى مفكرتها مواعيدها الفرامية وتفاصيلها . تصوروا أنهـــا وصفت عواطفها نحو ذلك الشاب الذى ملك عليهـا مشاعرها ؟ اسمعوا ماذا تقول :
راح يبحث فى الاوراق أمامه ، وتحت مائدة الاجتمـاع ، ويلتفت الى مساعده الذى يجلس الى جواره يسأله أين المفكرة الخـاصة ، بينما اعتدل الحاضرون فى مقاعدهم ، واستعدوا لسماع أمور يتوق اليهم فضولهم .
فوت المدير عليهم متعتهم . وقال بصرامة :
ــ ان وجود تلك العلاقة الأكبر دليل على الاستهتار .
كانت الناظرة تعرف ما الذى أوغر صـــدر المدير على الآنسة فيفى . قالت :
ــ بل هو هـدم لحسن السـيرة ، وخصوصا فى حالة مدرسة للبنات ، يفترض فيهـا أن تكون قدوة حسنة لهن . وانى باعتبارى ناظرة لمدرسة ..
قاطعها كبير المحققين دون اعتذار ، وقال :
ــ وقد بان مما ورد فى المفكرة أن مسلك الآنسة فيفى أفضى بها الى شرود الذهن ، وتأخر فى العودة الى مسكن المعلمات .
قالت الناظرة ، وهى تذكر ما كان قد كلفها به المدير أن تطلبه من الآنسة فيفى :
ــ هذا لا يليق صدوره من آنسة تحافظ على كرامتها !
استدار اليها المدير مجاملا :
ــ يعجبنى ، يا سيادة الناظرة عدم تفريطك فى مكارم الأخلاق .
انحدرت نظرته الى نهديها المنبعجين داخل ثوبهـا الاسود الضيق الذى عنيت بأن ينفرج قليلا عند الصـــدر . غطتهما بمروحتهـا الاسبانيولية التى رسم عليها مشهد من مصارعات الثيران .

عاد المدير يضرب المكتب بقبضته ملتفتا الى كبير المحققين :
ـ والآن ، ما العقوبة التى تقترحها ؟
ـ الخصم ، يا سيادة المدير .
ـ وانت يانائبى العزيز ؟
ـ التنزيل ، يا سيادة المدير .
ـ وأنت ، يا سيادة الناظرة ؟
ـ الفصل .

كان كل من المدير والناظرة يقرأ ما يدور فى عقل الآخر . فهما من طينة واحدة ، وما بينهما أكثر من علاقة عمل .

مال المدير فى مقعده ، وقد بان عليه الارتياح . وقال :
ـ هذا هو العقاب الرادع . الحزم واجب فى مثل هذه المسائل حتى لا يستشرى الداء .

رشف رشفة كبيرة من شراب الكركاديه المنقى للدم ، وقال :
ـ فلتفصل ، اذن !

قال كبير المحققين الذى اتصف بالوسوسة :
ـ ربما قالت المحكمة ان التعليمات ليس لها اثر اذا خالفت اصلا من الأصول العامة كمساسها بحرية شخص وأسراره .

صاح المدير ، وهو يعلن انفضاض الجلسة :
ـ فلتنفعها المحكمة !

المرافعة مستمرة

صاح المحامى أمام منصة القضاة :
ـ انى أتمسك من جديد بأن الدستور قد نص على حرمة الرسائل وسريتها . فلا يجوز الاطلاع عليها الا عند الضرورة القصوى .

ثم أراد أن يستعرض علمه الغزير ، فمضى قائلا :
ـ للقضاء رصيد من الأحكام المستقرة على صون سرية الرسائل . ومفهوم هذا القضاء انه لا يجـــوز للغير أن ينتهك السرية المقررة للمكاتبات والرسائل .

وأضاف متظارفا :
ـ ولا يستثنى من ذلك الا الزوج بالنسبة لزوجته اثباتا لجريمة الزنا .

تصنع المحامى وقارا ، وأردف يقول :
ـ ان المفكرة أعلى مقاما من الرسائل فى الحمـــاية المستوجبة .

فالرسالة تخرج السر عن طوية صاحبه وتوصله بعلم غيره ، ومع ذلك كفلت لها السرية . أما المفــكرة فتظل من أسرار صاحبهـا حتى النهاية ، وهى بذلك أجدر أن يحاط كتمانها بشتى الضمانات .

فى غرفة المدرسين

قالت مدرسة اللغة الانجليزية ذات الشعر القصير :

ــ غريب أن تبرأ رضوى التى وجد المحقق فى الدولاب رسائلها . فقد اثبتت أوراقها أنها راسلت شابين فى وقت واحد . وفى رسائلهما اليها ما يدل على أنها سلكت معهما مسلكا غير قويم .

دخل الفراش . وضع قدح القهوة على المنضدة أمامها .

مضت تقول لزميلتها مدرسة العلوم التى اقترب حملها من الشهر السابع :

ــ أتعرفين بما تعلل الرؤساء لتبرئتها ؟ قالوا ان علاقة رضوى بأحد الشابين انتهت بالزواج ، مما يقطع بشرف القصد .

أخرجت مدرسة العلوم من حقيبة يدها الكبيرة قلما أحمر وبعض الكراسات ، وضعتها على المنضدة .

رشفت مدرسة اللغة الانجليزية رشفة من قدح القهوة . وقالت :

ــ ولكن اذا كان الحظ وحده قد أفضى بالعلاقة المسلم بسوئها الى الزواج ، فأضحت بذلك علاقة شريفة منذ البداية ، أفلا يكون قطع مدرسة اللغة الفرنسية فيفى للعلاقة بارادتها هى ، بعد أن تبين لهـا أنها لن تنتهى الى الزواج ، أكثر شرفا ، وتمسكا بحسن السيرة ؟

علقت مدرسة العلوم قائلة :

ــ كانت علاقة رضوى مدرسة الالعـاب بشابين لا بواحد ، أليس كذلك ؟ فاذا انتهت علاقتها بأحد الشابين الى الزواج ، فأصبحت بذلك علاقة شريفة ، فما الذى سلمت به علاقتها بالشاب الآخر ؟

دق الجرس .

تجرعت مدرسة اللغة الانجليزية قدحها دفعة واحدة . ومالت تهمس لزميلتها بسرعة :

ــ رضوى أصلحت أمورها مع الرؤساء .

خرجت .

فتحت مدرسة العلوم الكراسات ، وانكبت على تصحيحها فى هـدوء .

الحكم يصدر فى النهاية

مبروك ، يا ست فيفى .
فلنوزع الشربات .
ولكن الحكم ماذا قال ؟

« القرار التأديبى قد انتزع الادانة انتزاعا من عنصر لا يحتمل تلك الادانة ، بل أنه يؤدى الى العكس من ذلك ، وبخاصة فى وضع دقيق حساس ، يتصل بالأعراض ، وبمستقبل فتاة لم يكن على مسلكها غبار » .

ابتسمت فيفى . أول من فكرت فيه أمها . لعل هذا الحكم يرد اعتبارها فى نظر المرأة العجوز ، ويعيد الطمأنينة الى قلبها . فقد أصيبت علاقتها بابنتها بجرح ينزف مهما اجتهدت فى تضميده . كان ماحدث أقسى صدمة تلقتها الأم ، تضاءلت ازاءها حتى وفاة زوجها مبكرا .

أطبقت الآنسة فيفى أهدابها الطويلة . نفرت من عينيها دمعتان . وهى تصافح أول من هنأها . أكانت تبكى من القرح ؟

الحركة المضادة

دق التليفون فى غرفة الناظرة . رفعت السماعة . وما أن سمعت صوت المدير حتى اعتدلت فى جلستها . فح صوت المدير فى أذنيها قائلا :

ـ الحكم صدر . هل نرتضى الهزيمة ؟
فح صوت الناظرة فى السماعة يقول :
ـ ما استحق البقاء بيننا من لا يذعن لرغبات مديرنا .
ـ هذا قانون . ماذا تقترحين ؟
ـ فلتنقل .
ـ اذن ، الى أقاصى الصعيد .
ـ هناك أيضا من يحسن نقله .
ـ من ؟
ـ الاخصائى الاجتماعى .
ـ وما خطبه ؟
ـ يلقى على الأرض بأعواد الثقاب . أفسد سجادتى .
ـ بعد غد ، يصلك القراران .
دق الجرس فى الفناء .

علت صيحات الطالبـــات وضحكاتهن . كادت تفطى على أوامر ضابطة النظام التى تنادى بصوت رفيع حاد :
ــ الأدب يا بنات ! الأدب !

فى غرفة المدرسين من جديد

قال مدرس اللغة العربية :
ــ ليست كتابة المذكرات بالشىء المألوف فى حياتنا . بل هو عمل تنبذه التقاليد اذا أقدمت عليه فتاة .
قال مدرس الرياضة ، وهو يتصفح مجلة من المجلات التى تنشر أخبار ممثلات السينما والمسرح :
ــ هنـــاك بعض قــواعد السلوك يجب أن نخضع لهـــا جميعا . وعندما نخرج عليها نجد المجتمع كله قد وقف ضدنا أو على الأقل أعرض عنا .
ولكن مدرس التاريخ كان له رأى آخر . قال :
ــ عندما يقرر الدستور للفرد حرية فانه يقف فى وجه التقـــاليد التى من شأنها أن تعترض حق الفرد فى أن يختبر الحيـــاة ليعرف بنفسه ماهو الصواب .
وسأل مدرس اللغة العربية :
ــ وهل للفرد أن يختار تصوره هو للصواب ؟
اجاب مدرس التاريخ بلهجة حاسمة :
ــ هذه هى حريته .
وقال مدرس اللغة العربية :
ــ يجب أن يعرف الجميع الخير من الشر .
وقال مدرس الرياضة :
ــ لكل نظام منتفعون وضحايا .

اللقـــاء بالنـــاظرة

فتح لها الفراش غرفة الناظرة . دخلت بخطوات وئيدة قصيرة . طويلة هيفاء شديدة النحول . بلوزة خضراء ومئزرة بنية طويلة . قامت الناظرة . أخذت الآنسة فيفى بين ذراعيها ، وطبعت على وجنتيهـــا قبلات . انتزعت فيفى نفسها من أسار النـــاظرة ، أشارت لهـــا أن تجلس ، وصفقت تطلب لها كوبا من الشـاى .

قالت لهـا الناظرة :

ـ افتقدناك كثيرا ، يا عزيزتى . مرحبا بعودتك الى مدرستك ، بل الى بيتك وأهلك . انك بمثابة بنتى . تعرفين ذلك جيدا .

دخل الاخصائى الاجتماعى . وما أن رأته الناظرة حتى ابتدرته قائلة :

ـ اخبر الآنسة فيفى ماذا كنت أقول عنهـا . الم أقل لك ان المدرسة بغيرها ليست سوى خرابة مظلمة ؟!

أسقط فى يد الاخصائى برهة . ثم ما لبث أن تجاهل الكلام الذى رمته به الناظرة ، وأقبل متهللا على الزميلة العائدة بعد طول غياب . قال :

ـ أقدر ماكنت تعانينه نفسيا بسبب ماجاء فى مذكراتك الخاصة ، يا آنسة فيفى .

ثبتت عليه عينيها الخضراوين ، كما لو كانت تريد أن تتأكد من شىء .

قالت له بصوت حاولت أن يكون طبيعيا :

ـ لم أكن أتفاءل كثيرا بتلك العلاقة . أردته زوجا ، لكنه أراد غير ذلك .

سحابة حزن غيمت عينيها . مضت تقول :

ـ أمل تبدد . حيوان قررت أن أتقى شره .

بدت كتمثال نحيل من الجبس .

تنهدت :

ـ أعرف . سوف أكون على الدوام وحيدة .

شد الاخصائى الاجتماعى على يدها .

عريس لأختي
(هذه ليست ملهاة)



عريس لأختى

— ١ —

جلست مفيدة فى الفسحة ترفو جورب أخيها . نظرت الى ساعة الحائط . كانت بانتظار عودته .

دق الجرس . بدا خيال فلة وراء زجاج الباب .

فتحت مفيدة .

أشارت فلة الى باب شقتها بالدور السفلى . لوحت بالمفتاح وقالت لمفيدة :

ـ اديه لأمى لما ترجع .

ـ خارجه ؟

ـ مشوار صغير .

نزلت .

— ٢ —

مقهى خلوى صغير .

اشترى لها عقدا من الياسمين . لم يجد فى ازالة معالم الكدر عن وجهها .

ـ اتغيرتى .

ـ ناسى .. بقالنا سنتين ؟

ـ وعدتك . وعند وعدى .

بسخرية خفيفة :

ـ لما مفيدة تتجوز ؟

ـ هانت .

ـ ومنين ؟ ازاى يجيها العريس ؟

ـ شوية كمان ..

ـ انت موش عارف اختك ؟

ـ تفرج .

لمع الغيظ المكبوت فى عينيها .

ـــ فاض بى !
نظرت الى نفسها فى مرآة على الحائط خلفه .
ـــ نفسى أعيش !
بدت صورتها ثقيلة المكياج . ربما لابراز بعض مفاتن الوجه ، أو ربما لاخفاء لمسات من السن التى تترك بصماتهـا على القسمات وهى تمضى .
سحق عقب سيجارته .
ـــ باعمل اللى على .
نظرت فى ساعة يدها :
ـــ الوقت بيجرى يامحروس . كفاية مماطلة .
نهضا ينصرفان . تلفتت حولها فى حذر .
تواعدا على اللقاء فى ذات المكان ، بعيدا عن العيون .
افترقا .

ـ ٣ ـ

ـــ قلتى له ؟
تشم عقد الياسمين .
ـــ كل اللى فى قلبى .
ـــ بيقول ايه ؟
ـــ الصبر .
حانقة :
ـــ بيهزر ؟!
تقف أمام أمها مثل تلميذ بليد .
ـــ ننتظر شوية .
ـــ ياميت ندامة على الشباب اللى بيولى .
فلة لا تجيب .
ـــ الراجل ده ، يابنتى ، مايرجاش منه خير .
يشتعل غضبها .
ـــ لا بيحل ولا بيعقد . مالوش فى الجواز . ماعندوش نية .
ـــ النية موجودة .
تطبق يدها على الياسمين .
ـــ تبقى العزيمة هى اللى ناقصاه .

ـ ٤ ـ

صعد الدرجات . تمهـل عند شـقة فلة . ثم مضى يصعد . دق

الجرس . فتحت أخته . تشمم الجو من حوله وقال :
ــ ريحة بخور .
ــ يجلب السعد .
ــ كان زمانك .
لا يكمل كلامه . .
ــ عمايلك تطفش . .
عاد لا يكمل عبارته . فهمت مقصوده .
ــ قسمة ونصيب .
ــ حاتخنق من ريحته .
ــ ناقصك حاجة ؟
ــ العمر بيفوت .
ــ موش قادر تستحملنى ؟ خلاص ؟
ــ بتلومينى علشان عاوز أشوفك فى بيتك سعيدة ؟
ــ عيب . أنا أختك الكبيرة .
ــ أنا باقول للنــــاس انتى أختى الصغيرة . وأنا اللى ربيتك زى بنتى .
ــ والناس حاتصدقك ؟
ــ بس اقلعى الهدوم دى . وحطى شوية بودرة على وشك .
تضحك بدلال :
ــ الحق موش عليك . الزمن اتغير . كل شىء أصـــبح كدب فى كدب .
ــ وخلى الباقى على .
ــ حتى الجمال أصبح مزيف ، والأخلاق بوية .

ــ ٥ ــ

ــ تلعب دور ؟
ــ سيبنى فى حالى .
أحضر الجرسون الينسون .
ــ مالك شايل الدنيا ؟
ــ عايز أقتل نفسى . أرمى نفسى فى البحر . زهقان .
ــ قل لى . جايز أساعدك ، أو على الاقل أسمعك تستريح .
ــ أختى ! ازاى أقدر أسيبا . الناس تقول ايه ؟ اتجوز وسايب أخته ؟

رشف رشفة عميقة من قدح الينسون .
بحسرة :
ـ نفسى أعمل لها حاجة !
سرح ذهنه ، وخيمت عليه تعاسة .
ثم نضح صوته بالحب :
ـ تربينا سوا يتيمين . كل واحد قلبه على التانى . يعز على أتجوز وأسيبها .
ثم التفت الى صاحبه ، وقال حانقا :
ـ نفسى أشوفها فى بيتها متهنية .
حط الصمت مليا . قطعه صاحبه ، سائلا بحرج :
ـ وايه رأى فلة ؟
ـ موش قادرة تستنى . خلاص .
برهة صمت وتأمل .
ـ ايه رأيك ؟ جربت الاعلان ؟
لم يفهم محروس .
ـ اعلان فى الجرايد . اعلان جواز .
ـ وده كلام ؟ بلاش فضايح .
ـ دى أحدث طريقة . كتير جربوها .
ـ ونفعت ؟
ـ أكيد .. ماتخيبش !
ـ والعنوان ؟
ـ اطمئن .. تليفونى ..

ـ ٦ ـ

« آنسة .. السن ٣٩ ... من أسرة محافظة . ترغب الزواج من .... »

ـ ٧ ـ

ـ عندى أخبار .
ـ طمنى .
ـ السنارة علقت .
ـ من بقك لباب السما .
ـ أجيب لك فنجان قهوة ؟
ـ قل لى مين ؟
ـ والا حاجة ساقعة ؟

ـ أدخل فى الموضوع من فضلك .
ـ اسمع ، ياسيدى . هو صحيح جدع خفيف شوية .
لمعت عينا الأخ بنظرات قلق ، أتت يداه بعض الحركات .
ـ موش للدرجة دى !
ما زالت عينا الأخ يرفرف فيهما قلق وتساؤل .
ـ قصدى انه من اللى هاجروا كندا من زمان ..
ـ مقيم هناك ؟
ـ وحضر من كام يوم عشان يتجوز واحدة من بلده . مستعجل .
ـ ويعنى كندا فضيت من الستات ؟
ـ وصية أمه .
ـ الله يرحمها .
ـ وبقى له كام يوم بيلف على بنات عشان ينقى بنت تعجبه .. يتجوزها ويسافر بها .
ـ وعايزها ...
ـ المهم تكون ست بيت ..
ـ الشرط متوافر .
ـ وصية أمه .
يرفع محروس كفيه الى السماء :
ـ ويحسن اليها !
ـ أديت له ميعاد بعد بكره .. يتغدى عندك .. اطعم الفم تستحى العين .
ـ أنا موش مطمئن .
ـ موش عشان يشوف عمايل ايدين عروسته ؟
ـ موش دى النقطة .
ـ عيب .. لبس البوصة تبقى ايه ؟
ـ من النهاردة على الكوافير والخياطة .
ـ لكن ماتجيب لها سيرة .
ـ السر فى بير .
ـ وعلى فكرة .. ماتنساش الباروكة .

ـ ٨ ـ

يصعد السلم . يحمل فى يده علبة كبيرة ملفوفة فى ورق مكتوب عليه اسم حلوانى . كلما وصل الى باب شـــقة مال يقرأ اللافتة . ضعيف البصر ، وعلى عينيه نظارة سميكة مذهبة الاطار . تبدو عليه

أناقة متكلفة ولا يتناسب لون البدلة الاسود مع الوقت من صباح يوم حار من أيام شهر أغسطس .

انحنى يقرأ اللافتة التى ثبتت على الشقة اليمنى بالدور الثانى . انفتح الباب فجأة . خطت منه فلة خارجة ، كادت تصطدم بجبين الرجل المحنى . أجفل متراجعا بضع خطوات حتى احتك عجزه بسور السلم الحديد . يحدق فى فلة كمـا لو كان لم ير امرأة من قبل . وقفت فلة حائرة ازاء ذلك الغريب الذى لا يرفع عينيه عنها .

رفع يده الى جبينه محييـــا . هم بسؤال لكن ثمة مسمارا فى السور كان قد علق بكوع سترته . وتسبب فى تمزيقه .

سارعت فلة اليه ، وأمسكت بذراعه متفحصة مبلغ ما تمزق من كمه . ثم ابتسمت له مواسية :

ــ تفضل . دقيقة . أرفيه لك حالا .

هز رأسه بالرفض مرتبكا .

مشجعة :

ــ ممكن تمشى فى الشارع بكم مقطوع ؟

مضى الى شقتها على مضض .

ــ اقلع الجاكتة عشان أرفيها .

تصبب جبينه خجلا .

ــ طاوعنى .

تحت ابتسامة فلة قبل .

ــ أشكرك جدا . يمكن الحاجات دى سهلة على ست بيت زيك . لكن العازب منا غلبان .

ــ انت عازب ؟

هز رأسه متحسرا .

نظرت اليه بفضول .

ــ كانت أمى دايما تخوفنى من ستات اليومين دول . والسنين مرت من غير ما أحس .

ــ خلى عندك دايما أمل فى بكره .

ــ العزلة وحشة .

بتأكيد :

ــ ربنا حايرزقك ببنت الحلال .

مضت بالسترة الى الغرفة المجاورة .

بعد هنيهة ، عادت وأمها مهرولتين .

رحبت الأم بالضيف بحرارة :
ـ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا !
عرفته فلة بأمها :
ـ نينة . والدى متوفى .
نهض الضيف ، وانحنى أمامها .
ـ وحضرتك ؟
ـ معوض كبابى . رجل أعمال .
التفت الى فلة معتذرا :
ـ آسف . تعبتك من أول مقابلة .
بادرت الأم قائلة :
ـ تعبك راحة ، ياخويا .
ناولته فلة سترته :
ـ جاهزة . على ماتوصل للبيت .
قال الضيف :
ـ قصدك المطار .
لم تفهم المرأتان .
قال لهما معوض كبابى موضحا :
ـ الحقيقة أنا راجع كندا النهاردة .. بطيارة بعد الضهر .. ظرف .. طارىء . بعتوا لى استدعاء عاجل .
سألته الأم :
ـ كنت بتبحث عن شقة مين حضرتك ؟
ماضيا فى أيضاحاته :
ـ عملا بوصية المرحومة أمى جيت أتجوز من بلدى .
ينظر الى فلة ثم الى أمها ، ويطرق .
قالت الأم لابنتها :
ـ اعملى قهوة للضيف ، يا فلة .
ـ مالوش لزوم .
ـ ودى تيجى ؟ حالا ، يافلة !
جرت الابنة الى المطبخ .
ـ بنتك سكرة .
قالت الأم ، كما لو كانت تروج بضاعة :
ـ وست بيت ممتازة !
يتحسس كمه قائلا :

ــ واضح .. واضح ..
تنهدت الأم وقالت :
ــ ماليش غيرها .
تلاقى معها :
ــ وأنا مقطوع من شجرة .
ــ ربنا يرزقها بابن الحلال .
منزعجا . تهبط عليه الفكرة .
ــ هيه ؟! يعنى !؟ تسمحى لى بكلمة ؟
تكلم بسرعة :
ــ أنا صاحب شركة محترمة . ولى ايرادات بره . ورصيدى فى البنوك آهوه .
أخرج أوراقا ودفاتر شيكات نثرها فى حجر الأم . امسكت بهـا ، قلبتها ، راحت تنظر اليها حائرة .. مضى يقول بسرعة أكبر :
ــ وشارى تلات شقق فى عمارة البرج . تمليك . مستعد أكتب واحدة باسمك .. وواحدة باسم بنتك ..
دعك كفيه وأضاف ضاغطا على كلماته :
ــ والتالته برضه لها .
توقف . حدق فى الديك الرومى الجالس أمامه متأملا تأثير كلامه .
صمت من جانب الأم .
ــ خايف مالاقيش عندك ترحيب . عمرى كبير شوية ؟
ذهول من جانب الأم .
ــ لكن أنا مش عجوز للدرجة دى .
يخرج من جيبه علبة مخملية صغيرة . يفتحها . يلمع بداخلهـا خاتم سوليتير .
تجد الأم كلماتها :
ــ طبعا . الرجل ممكن يتجوز فى أى سن .
جاءت فلة تحمل صينية القهوة .
قال الضيف :
ــ أنا عاوز أطلب ايد بنتك..
سقطت الصينية الى الارض ، واندلقت القهوة .
نهض الضيف يلبسها الخاتم الغالى الثمن . دارت الرءوس ولانت القلوب العطشى .
هبت الأم من كرسيها . جذبت ابنتها من ذراعها . وجرتا الى غرفة جانبية ، تتشاوران .

بقى الضيف وحيدا ، وقد علت وجهه ابتسـامة رجل الاعمال الخبير بأحوال البورصة .

انتهت المداولة . عادت المرأتان على عجل . تقبله الأم .

ــ مبروك ، ياعريس بنتى .

ــ أهلا ، ياحماتى .

قبلت فلة أمها :

ــ ياحبيبتى ، ياماما .

يتبادلون القبل ، هم الثلاثة .

قال معوض ، بعد أن انتهت جولة القبلات ، وتبادل التهانى :

ــ بس فيه حاجة .

هبط الوجوم على المرأتين .

ــ يمكن مانرجعش مصر .

دارت العيون فى المآقى . حسم الديك الرومى المسـألة ، فقـد اهتدى الى قرار :

ــ يبقى آجى معاكم !

تذكرت فجأة شقة عمارة البرج التى وعدها بها عريس ابنتها ، سألته منزعجة :

ــ والشقة ملكى ، يا معوض ؟!

ابتسم الضيف :

ــ حاتسافرى بالطيارة ، يا حماتى .. وتركبى عربيات .. وتلبسى مستورد .. حاتشوفى بلاد كتير وتشترى حاجات أكتر .

تجذب ابنتها من ذراعها ، وتجريان فى أنحاء الشقة تعدانها للسفر .. تخرجان مفاتيح . تقفلان الدواليب . تنثران النفتالين ، وبودرة الصراصير على الارض وفى الاركان .

الضيف :

ــ بسرعة .. بسرعة ..

نزعنا الأسلاك .. رفعنا الفيش والأكباس ، كومتنا الحال والمواعين جانبا ، حتى ما لم يكن قد غسل منها .

قالت الأم :

ــ اقفلى المحبس .

الضيف :

ــ مافيش وقت .

الأم :

ــ والحنفيات .

اندلقت فى هذه الحركة الهوجاء بعض الأوانى الزجاجية . تكسرت وتناثرت على البلاط شظاياها .
ركلتها الام بقدمها وقالت :
ـ مايهمش . كله يتجدد .
أثناء التجوال السريع فى الشقة ، عثرت فلة على عقـود ياسمين جافة ، ذكريات من لقاءاتها السابقة . قذفت بها الى الارض . وداست عليها الأم فى جيئتها وذهابها .
أحضرت المسافرتان حقيبة من الفيبر متهالكة . ألقيتا بهـا على الاريكة ، ومضتا تحشران فيهـا فساتين وملابس داخلية وحوائج أخرى .
لوح لهما معوض مستاء مما يفعلان :
ـ مالوش لزوم . كله جاهز عندى !
أزاحتا الحقيبة . وتركتاها .
سبقهما معوض الى الباب :
ـ يادوبك نلحق المأذون ، والسفارة ، والطيارة ، والاجراءات .
يقفز الى ذهن الأم خاطر .
ـ حضرتك كنت بتسأل عن شقة مين ؟
مر أمام ناظريه الاعلان الذى قرأه فى الجريدة . ابتسم :
ـ لا . كل شىء راح لحاله .
أشارت فلة الى العلبة التى أحضرها معه :
ـ ودى ؟
يجذبهما من ذراعيهما ، ويمضى الى الخارج قائلا :
ـ نبقى نأكلها فى الطيارة !

ـ ٩ ـ

ارتدى محروس جلبابه الابيض . بعد العشاء كانت النسمات تهب من النافذة البحرية رطبة ومنعشة . جلس على الكنبة فى الفسحة .
جاءت اليه مفيدة على مهل . وقفت . سألته دون قصد :
ـ ناقصك حاجة ؟
أجلسها الى جواره . وضع ذراعه على كتفها . نكست رأسها ، وقد أحست كأنما ارتكبت فى حقه ذنبا . طبع على جبينها المتغضن قبلة . أصلحت وضع المنديل الملون على رأسها .
أطرقت . ولم تنبس بكلمة . راح يحادث نفسه ، وهو يسترق النظر اليها .

ينقصه شيء ؟ لم يطلب قميصا ووجده غير مغسول ومكوى . كل شيء في البيت نظيف ومرتب ، وتحت أمره ، دون حتى أن يسأل ، كأنه سلطان والى جـــــواره جارية تخـــدمه ، أفضل هو بكثير من المتزوجين .

أخذ راحتها بين يديه . خشنتان ، لكنهما خيرتان . رفع بصره ، رقبتها معروقة لكن في طول ونبل ، ورأسها منكس . انه ليس على أي حال انكسارا ، بل هو تواضع يصل الى حد ايثار البقـــاء في الظل ، ونكران الذات ، بشرتها يعلوها قشف خفيف من قلة العناية بالنفس . وعيناها ــ أبلغ مافيها ــ تشعان صفاء وطيبة أصل .

عاد يناجي نفسه .

يلتقي بمتزوجين ركبهم الهم . وجوههم متجهمة . وملابسهم مهملة . يشكون كثرة الخلفة والشجار ووجع الدماغ . أما هو فلم يشك من مفيدة ، ولا عرف الهم معها .

سهرت ورعته ، بعد أن ماتت أمهما . كان أصغر من أخته . عاملته مثل ابنها ، والآن بعد أن كبر وصار رجلا تعامله كما لو كان أباها ورب نعمتها . انه كل شيء في دنياها . وان شئنا الحق هي أيضا في دنياه كل شيء .

« هي لمبة الجاز اللي بتنور ضلمتي . جايز تكون فلة نجفة كبيرة ، لكن نورها انقطع عني كتير ، كان بيحصل دايمـا ماس في ساوكها . انما لمبة الجاز ، عمر الجاز مانقص فيها » .

نظر اليها يتأملها في صمتها :

« واذا كان على الجمال أوحش منهـــا اتجـوزوا أحسن جوازات واتستتوا في بيوت » . واذا كان على الحظ فليقتسماه معـا ، وليقفا جنبا الى جنب الى أن يبتسم الحظ لهما .

ربت محروس على ذراعها بحنان شديد . وقال :

ــ قومي ، يا مفيدة بخري البيت . قومي !

خادمة الغرف



خادمة الغرف

ـ ١ ـ

ضحكت خادمة الغرف . أمسكت بأذنك فى مودة ، وقالت لاتجاوز نفسك ، وكف عن المداراة . قلت لها « فقط اتركى أذنى ، وافصحى عما تقصدين ؟ » وضعت ذراعهــا البدينة على كتفك وأمعنت فى الضحك ، وقد ثبتت بصرها فى عينيك .. انفلت من ثقل ذراعهــا وجسدها ، وقد كادت تندلق عليك . قلت لها « لا أفهمك » دمعت عيناها من فرط الضحك « أنا أعرف لماذا جئت الى هنــا ؟ » قلت لها « حقا ؟ أريد أن أعرف منك » . ضاقت حدقتاها فى خبث ثم خفضت صوتها قائلة « هل تريدنى أن أدلك على مكان به فتيات تقضى فيه وقتا طيبا ؟ » لم تتوقع هذه المفاجأة حقــا ، لكن شيئا بين ضلوعك خفق . عاد عقلك يمسك بالزمام . قلت لهــا مجفــلا « أيتها البقرة ، هل فقدت صوابك ؟ » استغرقت فى الضحك العنيف رفعت ذراعيها وعقدتهما وراء رأسها . كان شعر ابطها قد نما أكثر من ذى قبل وانعقد فى خصــلات مهوشة . مالت نحــوك ، وقالت « لا تخف . سيظل الامر سرا بيننا » أطلت النظر اليها دون أن تتفوه بكلمة . أوقعت عينــاك الارتباك قليلا فى قلبهــا ، فابتــدرتك متحدية « دعك من نظرات الأبرياء ، ألم تعترف بنفسك انك جئت طلبا للحب ؟! » قلت لها « يا أخت مينوس ، لماذا تقولين مثل هــذا الهراء ؟ » وضعت يديها فى جنبيها ، وصاحت فيك « هيه ، هل تستطيع أن تنكر ؟ » قلت لها « ليس الحب عشقا للجسد وحده . قد يحب الرجل تمثالا ، قد يحب الرجل كتابا ويؤثره على أجمــل النساء ، قد يحب كلبا أو عصفورا أو زهرة . ثم هــل تعتقدين أن المرأة هى جسم المرأة ؟ قد يحب المرء وطنا .. قد يحب نغمة يقضى العمر كله يسترق السمع عله يلتقطها بروحه قبل أن تلتقطها أذناه .. قد يحب المرء حلما .. قد يحب وهما .. عارف من ضحى بحيــاته من أجل انقــاذ قطة ، ومن ضحى بهــا فى سبيل تحرير شبر من

وطن ، وأعرف أيضا من كرس حياته من أجل اصطياد ميكروب ، لا يشغله جسم أجمل حسناء عن أن يراه تحت الميكرسكوب . ثم توجهين الى أنا أيتها البقرة ، مثل هذا الكلام ؟! » . ارتبكت البدينة الطيبة ونكست رأسها قائلة « معـــذرة ، لم أكن أقصد » . أثارت جلبتكما نزلاء الغرف .. فتحت الابواب المطلة على الردهة الطـويلة .. أطلت منهـــا رءوس وأكتاف عارية .. سحن بيضاء ، شـــعور طويلة شقراء مرسلة حتى الخصر ، شوارب خفيفة فوق الشفاة المخضبة بالطلاء .. أثداء مترهلة تحت قمصان النوم .. بسمات بليدة .. وعيون متسائلة .. التوت الاعنـــاق ، ودار الهمس .. أشارت الاصابع اليك ، كمـــا لو كنت أنت العريان ، ولم يكونوا هم العراة .. تعالت الهمهمات « موصوم ! .. مقضى عليه » التفتت البقرة الى المطلين . قالت ، وقد خيمت بحدقتيها ســـحابة من الشك « ماكنت أصدق !! » انسحبت مبتعدة .. استدرت ، ودخلت غرفتك ..

— ٢ —

أغلقت الباب وراءك بالمفتاح وتركت المفتاح مكانه على الباب .. الجو حار .. لم تفتح النافذة . كنت بحاجة الى الضوء الخفيض .. أحسست بالاختناق .. خلعت ملابسها كلها .. استلقيت على السرير الابيض .. مددت ساقيك .. ومكثت فى مكانك ساكنا ، تنظر الى الشعر الاسود الكثيف على صـــدرك وبطنك وساقيك .. انتظمت أنفاسك .. الجو ملتهب فى الغرفة .. لا .. لا تفتح النافذة .. الضوء الباهر عذاب جديد .. أطبقت جفنيك مليا .. فتحتهما .. ثبت أنظارك على ساقيك .. بدأت أظافرك تتبخر أمامك ، ومن بعدها قدماك .. ثم ساقاك .. ثم الجزء الاسفل من بطنك .. كل شىء مضى يتبخر ببطء .. جسمك ينمحى .. كل شىء ينمحى .. ينعدم .. يتبخر .. يذهب بددا .. أردت أن تصرخ .. فات الاوان كانت حنجرتك وشفتاك قد تبددت .. لم يبق فى النهاية سوى عينيك الجاحظتين المبهورتين تعاينان خرابك .. نهضت من السرير .. جريت .. سقطت عيناك على الارض ، فلم يكن لك قدمان ولا ساقان .. زحفت عيناك على رموشهما .. تدحرجتا .. زحفتا الى الحمام .. أردت أن تفتح صنبور المياه .. لم يكن لك يدان .. مقلتـــاك المذعورتان .. بكيتا .. ســـالت بدموعك غزيرة .. حارة ، ملأت البانيو .. قررت أن تغرق فيه وتستريح .. ألقيت بعينيك ..

ـ وهما ما بقيـــا لك ـ فى البانيو الرخامى الابيض الذى يشبه قبرا مفتوحا .. عندما يقرر المرء أن يضيع نفســه يكسبها .. أردت ان تنمحى تماما ، فعادت اليك صورتك .. فى الماء ، رأيت جسدك ، مسجى . ينعم بدفقات الماء..الى المحجرين الأجوفين ، جرت عيناك، تشبثتا بالتجويفين فى نشوة وألم ولهفـــة وعادت الابتسامة الى شفتيك ..

زال الحر من الغرفة ..
عبق الجو رائحة الصابون المعطر ..
ارتديت ملابسك ..
ومضيت ،
الى الميدان الفسيح المرصوف بالرخام الأملس ،
لتطعم الحمام .

ـ ٣ ـ

يلتقط الحب من راحتك المبسوطة .. يحط على كتفيك .. وأحيانا على رأسك .. ينزل الى راحتك .. بمنقـاره يلتقط الحب من يديك .. يدغدغك عندما يقف على ذراعك ، وعندما تحس بمنقاره يضرب أصابعك وبطن كفك ، تريد أن تضحك مثل الاولاد المحيطين بك فى الميدان الكبير .. تشترى كيسا آخر من الحب .. ينفرط منك .. يتناثر الحب على الارض الرخامية حول قدميك .. يجرى الحمـــام على الارض .. يتبارى فى التقاط الحب .. مخالبه الثلاثية الصغيرة تمضى الى الامام والى الخلف .. يدور حول نفسه .. أينما وقع من الايدى المدودة الحب .. تدعو الطيور الصغيرة الوديعة أن تعـود للوقوف فرحا على كتفيك .. تأتى حمامة رمادية تحط على رأســك برهة .. يخفق قلبك فرحا .. ويضحك الاولاد من حـــولك .. يعتبرونك محظوظا ويمتلىء الميدان الفسيح بالضحكات .. تحس بأنك أصبحت شيئا جديدا .. ان السنين قد ولت عن كاهلك مع رفرفات الاجنحة .. وتصير من جديد طفلا نحيلا أسمر .. بسروال قصير .. وبال خلى وابتسامة .

الحب أحيانا



الحب .. أحيانا

تلك التى أحبته

ذهبت الى الحلاق . جلست على الكرسى ، وطلبت أن يصفف شعرها . انحنى لها ، واستدار يعد أمشاطه ودبابيسه وصبغة القار .

عندما التفت اليها كانت قد أزاحت الوشاح عن رأسها ، فبدت ضفائرها .

تعالى الصراخ . سقط صبى الدكان على الارض مغشيا عليه ، وجرت النسوة خارجات مولولات ، فلم تكن خصلاتها سوى أفاع تتلوى ، وغدائرها حيات سوداوات .

تلفتت المرأة حولها فى دهشة ، وأشارت بيدها النحاسية الى جدائلها فى المرآة ، وقالت :

ـ ألم ير هؤلاء الناس شعرا حقيقيا ؟!

ربت الحلاق العجوز على ضفائرها المسمومة ، وقال فى وقار :

ـ سيدتى ، اننا فى عصر الشعر المستعار .

ماذا قال لها فأحبته

ـ كم أحبك ؟ تسألين كم أحبك ؟

فى أحسن حالاته كان ، فعادت وسألته :

ـ كم ؟

قال :

ـ أحبك مثل ما يحب العنق حبل المشنقة ، مثل ما يحب المنشار كتلة الخشب ، مثل ما تحب الرصاصة قلب الضحية .

ثم عاد واستفسر :

ـ ما زلت تسألين كم أحبك ؟

عيناها تكادان تبظان من النشوة ، هزت راسها عدة مرات بالايجاب ..

ـ مثل ما تحب المطرقة رأس المسمار ، مثل ماتحب الفراشة السنة اللهب .. أحبك ، أحبك . هل عرفت كم أحبك ؟
نهضت ، وانكبت عليه تقول :
ـ هل تكتب لى هذه الكلمات فى ورقة ؟
أمسكت بيده وكتبت . ثم أخرجت عودا من الثقاب ، أشعلت به الورقة . ودارت فى أرجاء الغرفة تطوح ذراعها ، ويدها ممسكة بالنار الصغيرة ، تقربها من عينيه أحيانا ، والورقة تتحول الى رماد . قالت له :
ـ الآن ، لا تستطيع أن تفلت . .

كيف تخلص منها

طاردته .. من شارع الى شارع ، جرت وراءه .. تعقبته فى الازقة .. من زقاق خرج الى زقاق .. ومن شارع دخل الى شارع .. منته بالعنـــاق .. منته بالقبل ، بشفتيها ، ذكرته بشعرها وملمسه ، وبأشياء أخرى .. هرول يجرى .. ينظر خلفه ، ويجرى .. تتعثر قدمه .. يسقط .. ينهض على عجل ، ويطـلق لساقيه العنـــان .. لم يكن يدور بخلده من قبل أن فى ركبتيه كل هـــذه القوة الكامنة ، وان عضلاته الضامرة يمكن أن تؤدى به الى هـــذه السرعة .. البيوت تتتابع .. النوافذ .. الاعمدة .. الشرفات .. الاشجار . تترى على الجانبين .. استدار يسارا .. استدار يمينا .. انعطف يمينا ويسارا .. الصوت ينعطف معه .. صوتها يلاحقه .. وفى أعماقه صوت أقوى يصيح « انج بنفسك .. لا تمكنها منك .. اهرب اهرب .. » كادت تلحق به .

استدار .. بعد بضع خطـــوات اندلق الى الميـــــدان الكبير . كان لابد أن ينجو من الصوت الرقيق .. بالغ الرقة الذى يطارده ، والذى أوشك أن يلحق به وأن يطبق عليه فى حنان وعشق مثـــل كماشة شديدة الاحكام .. لا .. فى الميدان الكبير رجال اصطفوا فى ثلاثة طوابير .. لفت عيونهم بعمائم سوداء .. وأوثقت أيديهم خلف ظهورهم .. اندس بينهم .. أحس المحكوم عليهم بمن يندس بينهم .. « انج بجلدك .. ابتعد عنا .. الا ترى .. اننا سنلقى حتفنا رميا بالرصاص ؟! » لم يجب المندس .. الموت أهون من فراشها .. الرصاص أهون من أظافرها الملوثة .. ســـــأله الذى بجانبه من الناحية الاخرى « ما رقمك ؟ » لم يجب .. تهلل من كان

خلفه وهمهم يقول لبقية الرفاق ..« رقم صفر .. انه جاء لنجدتنا. لنجدتنا جاء البطل » تعليمـــات الضابط ذى السترة المحـــلاة بالاشرطة والانواط تتوالى .. فرقة من الجند حملة البنادق تصطف في مواجهة الثلة المقضى عليها « استعداد .. استعداد .. ترفــع البنادق » أمر الضابط مساعده باعادة عد المحكوم عليهم .. بعد لحظة « سيدى .. انهم ليسوا واحدا وعشرين .. » « كم عددهم اذن ؟ ». «اثنان وعشرون» .. زال بسرعة عن الضابط ارتباكه الوقتى ..ورفع يده الى الجند بأن يصوبوا البنادق .. لم يزل عن مساعده ارتباكه وتوجسه « سيدى ، انهم ليسوا واحدا وعشرين .. » اشارة أخرى من الضابط الى جنده بأن يحكموا التصـــويب وأن يستعدوا .. « سيدى ، انهم ليسوا..» انفجر فيه الضابط « اسكت ، أيها الغبى .. طالما أنهم ليسوا أقل من واحد وعشرين فالعدد لا يهم ... »

« انج بجلدك يا أيها الدخيل .. انت لست منا .. ألا ترى مانحن مقبلون عليـــه ؟ » .. أصر المندس على التشبث بمكانه بينهم .. والصوت المطارد ما زال يدوى مقتربا فى أعمـــاقه .. انهالت عليه اللعنات « اذن فلست منقذا .. واذا لم تكن منقذا فما الذى جاء بك الينا ؟! » .

أعطى الضـــابط اشارته .. دوت الطلقات .. وعلت على كل الاصوات والهمهمات .. وسقط على أرض الميدان الكبير اثنان وعشرون صريعا . وكان صوت آخر من لفظ أنفاسه يقول « ما دمت لست منقذا .. ما دمت لست سوى هارب .. فاللعنة عليك .. » أما المندس فكان ما لفظ به « اللعنـــــة على شـفتيها العطشــاوين أبدا .. »

الثرى أرحم من فراشها .. أرحم ..

الحب الكابوسى

الحب الكابوسى

بخطوات بطيئة دخلت .

قالت لها الخادمة البدينة :

ــ أعرف لماذا أتيت . قلب الأم دائما هكذا . من أجل ميدو . حضرت . . كلنا نعرف . . رغم كل شيء حضرت . .

مسحت دمعة نفرت من مقلتيها :

ــ ساهم النظرات هو . . صموت دائما . . ليس له أحد .

غلبتها عواطفها . جرت خارجة .

ظلت وحدها . جالت بخطوات وئيدة فى عتمة الغرفة . ثم جلست على كرسي خفيض بلا مسند . ضمت ركبتيها العاجيتين . وأسندت اليهما حقيبـــة يدها . فى العتمة لمع البلاستيك الاخضر . . دست أصابعها داخلها . اطمأنت نظراتها لما لمسته فى الكهف الصغير المظلم . عادت تقفلها بحرص .

كعصفور ضئيل سكنت فى جلستها .

لم تنتظر كثيرا .

دخل بخطوات مسرعة . وقف ينظر اليها . فى تثاقل رفعت اليه وجهها . كان على الدوام شاحبا نحيلا . . شفتان باهتتان وعينان ــ فقط العينان ــ واسعتان عسليتان رشفتا كل ما فى الحجرة من ضوء زهيد .

تلاقت نظراتهما وظلت متشابكة لحظة .

كحركة انتشال ذهب الى النافذة وفتحهـــا . . دفع الضلفتين الخشبيتين بقوة . فارتطمتا بجدار الغرفة الخارجى .

رفعت ذراعها الى عينيها لوقايتهما . همت أن تقول شيئا .

استدار اليها :

ــ أعرف ، الضوء يضايقك . . أجل . . اعرف كل ماتريدين أن تقوليه . . أعرف كل شيء . . لكن لا أريد أن أسمع الآن شيئا . .

أطرقت الى الارض ..
ــ أذكر .. آخر عبارة لك وأنت ترحلين .. هل تريديننى أن أقولها لك ؟
تهز رأسها بالنفى .
فى اصرار يرددها « لا أستطيع لا أستطيع » .. هذا ما قلته ..
برهة خيم الصمت .
فجأة قال لها ، مسترضيا :
ــ سعيد اذ أجدك هنا .. لا تتصورى اننى لست سعيدا لحضورك .
بصوت هامد ، وما زالت مطرقة :
ــ أعرفك جيدا .. تقول أشياء ثم تندم .. لم تتغير .
كمن تلقى صفعة :
ــ ولكن .. ليكن فى علمك لا أريد مشاكل ..
ترفع اليه عينيها :
ــ ماذا تعنى ؟
ــ وجع دماغ لا أريد .
تثبت نظراتها عليه :
ــ لا أفهم .
كاتما انفعاله :
ــ تفهمين جيدا .. خمس سنوات عشت هنا فى هدوء .. المسنون يطلبون العزلة .. يطلبون أن يتركوا وحدهم .. يطلبون أن نتركهم وحدهم .. وأنا من شدة حبى لأمى تعودت أن أحب أن أترك وحدى .. خمس سنوات والسكينة تخيم على البيت . لا ينغص حياتى أدنى منغص .. أنا هنا فى سلام تام .
أشاحت بوجهها ، وانشغلت بالنظر من الشباك البعيد .. سماء كابية وسحاب جامد كالرخام .
ــ لماذا لا تنصتين الى ما أقول ؟
ماضية فى انشغالها :
ــ انصت .
ــ لم تتغيرى عما كنت عليه .. دائما لا تنصتين ولا تلتفتين الى ما يقال لك .. دائما لا تكترثين .. لا يتغير المرء بسهولة .
يعود الى انفجاره المكبوح :

ـ لكن يجب أن تتغيرى !
بمنتهى الهدوء تصفف شعرها بيدها :
ـ انت مخطىء .. على الدوام مخطىء .
ـ أبدا .. لا يعجبنى ذلك .. أنت الآن فى بيتى .. ما دمت، سعيت بقدميك وجئت .. لابد أن تتغيرى .
سقط على الاثنين صمت ثقيل .
يعود الى تلمس الحديث اليها :
ـ هل كان السفر مريحا ؟
باقتضاب :
ـ القطار مكيف .
ساعيا الى أن يحملها على الكلام :
ـ والجميع . كيف حالهم ؟
ـ يسلمون عليك .
ـ وأخوك ؟ ما زال يكرهنى ؟
ـ تتوهم أن الجميع يكرهونك .
متراجعا :
ـ على أى حال ، لماذا أسأل ؟ امور مثل هذه لا تعنينى .
مغيرا الحديث :
ـ آسف ، اذ اشترطت مجيئك وحدك .
تتسع الابتسامة الباهتة على شفتيها قليلا .
ـ ولأنى لم أنتظرك على المحطة .. ولكنك لم تخبرينى بمجيئك .
خيم الصمت .
عاد يكسره :
ـ منذ أول لحظة انتظرت عودتك .
لا اجابة .
ـ كل هذه السنوات كنت أنتظر .
انغرست أصابعها النحيلة فى جسد حقيبة يدها البلاستيك .
ـ كان يمكنك أن تجيئى قبل ذلك ..
رفعت اليه وجهها . صوبت اليه نظرة عميقة حادة ، كما لو كانت تفتش بين ضلوعه عن حقيقة ما يقول .
عادت تطرق من جديد .
ـ بيتى تحت أمرك ..
اقترب منها ولمس كتفها :

ــ انه بيتك ..
رفعت يدها وربتت على يده ..
ابتعد عنها بضع خطوات :
ــ هل تنوين البقاء ، حقا ؟
ــ سوف أرى .
ــ منذ البداية لم أتوقع أن يطول غيابك .
انتابه ضحك هستيرى .. لا يغالب نفسه عن أن يكف عنه .
أوقفته بلهجة صارمة :
ــ ما الذى يضحك ؟
قال وقد اختلط كلامه ببقايا ضحكه :
ــ هأنت تجيئين فيساورنى الشك منذ أول لحظة فى انك ستبقين طويلا ، يا لنا من زوجين مضحكين !
يمسح الدموع التى فجرتها ضحكاته من مقلتيه .
تجيل بصرها فى أرجاء الغرفة :
ــ ما الذى يجعلنى مرتبطة بهذا البيت ، بهذه الحوائط والغرف ، كل هذا الارتباط ؟ عنه لا أستطيع البعاد . واذا رحلت حملته فى أعماقى مثل جنين حبيب موجع .
برهة صمت .
سألته :
ــ أما زالت معنا .. هنا ؟
هم أن يسألها أول الامر من تقصد . ثم ما لبث أن فهم .
قال :
ــ فوق .. تلزم غرفتها .. وترعى قططها .. ميدو قطها الاسود المفضل .. تصطاد الفيران لاطعامه .. رغم أوجاع المفاصل ستجدينها منحنية على مصيدة الفيران تترقب فرصة .
ــ عندما نزلت من التاكسى ، ودخلت ، خيل الى أن ثمة من يختبىء فى بئر السلم .. عينان لامعتان فى العتمة ، لا تطرفان .
ــ انها أمى التى ماتت منذ سنين تنزل درجات السلم ، بخطوات متئدة ورصينة .
ــ بالعكس .. أمك أحبها . عندما ولدت ميدو أهدتنى سوارها الذهبى .
تريه معصمها العارى .
ثم مستطردة :

ـ ودعت له أطيب الدعوات .
ـ أوهام .. لو ظل ابننا حيا ..
ثم بعنف يسألها :
ـ أما زال أخوك يكرهنى ؟ لم يكن الذنب ذنبى عندما انحرفت السيارة .
مهدئة من روعه :
ـ أحس بالأمان هنا .. أليس هذا بيتى ؟
تسأله بجزع :
ـ أليس هذا بيتنا ؟
تذكر شيئا :
ـ لا بد انك جائعة ، بعد هذا السفر الطويل . يالى من جلف .. انتظرى .. أعددت لك شيئا من الطعام .
خرج الى المطبخ .
اندفعت الخادمة البدينة الى الغرفة بخطوات متخبطة .
ـ دادة ! ما بك ؟
تراجعت الخادمة مجفلة :
ـ لا .. لا تكلمينى ..
نهضت اليها .. ازداد التصاق ظهرها بالحائط :
ـ لا تقربى منى .. أرجدك .. لا تقولى لأحد انك رأيتنى هنا !
ـ دادة مبروكة ! ما بك ، حقا ؟!
ـ لا أقدر .. لا تطلبى منى أشياء مستحيلة .. سأدفع الثمن غاليا .. نظراتها ترقبنى من داخل السقف .. أدفع لارتكاب أفعال أندم عليها ..
ـ هل أنت نادمة ؟
ـ انتهى .. لابد أن أنال خلاصى .
ـ أحب أن أساعدك ..
ـ لا أحد يقف الى جانبى .. كم أنا بحاجة الى من يفهمنى .. ويعطف على .
تضحك وتقول لها :
ـ أنا حزينة جدا من أجلك !
ـ لماذا لا يحاول الناس أن يفهموا بعضهم بعضا ؟
ـ دعك من هذه المواعظ ، واسمعينى .. هل ..

ـ لا أقدر .. لا أقدر .. ليس عندك فكرة ماذا تطلبين منى .
بحزم :
ـ يجب أن تتغلبى على ضعفك .. كما تغلبت عليه أنا .. من أجل هذا جئت .
أمر صارم :
ـ تكلمى !
تبلع الخادمة البدينة ريقها :
ـ تجلس هناك .. فوق .. منزوية فى مقعدها .. مهمومة على الدوام .. مؤرقة البال .. تفكر .. لا تفعل شيئا غير أن تفكر .. أرق دائب .. فى ميدو بالطبع تفكر .. مشغولة الخاطر عليه .. غارقة هى فى حلم .. تتدثر بشالها القرمزى صيف شتاء .. قطها فى حجرها أو عند قدميها .. لونه لون الخف الذى تلبسه .. وتقول متنهدة وتردد « أمنيتى أن تعود الى بيتها ، الى زوجها تعود .. » عنك تتكلم بطبيعة الحال .
لا تقوى على مغالبة جيشان عواطفها :
ـ أنا ميتة ! كلنا ميتون !
واندفعت الى الخارج مولولة .
جلست . أخرجت من حقيبة يدها مشطا . مضت تمشط شعرها بعد أن حلت جدائله .
عندما يعود ، لا يعود بأى طعام ، بل يعود . مرتديا البرنس :
ـ آه ، لا تلومينى . وجدت باب الحمام مفتوحا ، لم أقاوم اغراء الماء الدافىء . فى غمرة الدفء نسيتك .. أين كنت ؟ نسيت كل شىء .
يجلس على الاريكة ، فتأتى اليه ملاطفة . يتذكر :
ـ لم أجد طعاما . لابد أن القطط أكلته . ولكن انتظرى ، عندى شراب .. فى مكان أمين احتفظ به .. شرابك المفضل .
يفتح دولابا مختفيا فى الحائط ، ويخرج منه زجاجة .
ـ نبيذ أبيض . أتذكرين ؟
يصب قدحين .
بخطوات رشيقة حافية القدمين ، تذهب الى حقيبتها .
ـ وأنا أحضرت لك هدية .. أحب السوناتات الى قلبك ..
ـ « فى ضوء القمر » !
تضع الاسطوانة على الحاكى .

يجلسان على الاريكة فى استرخاء يرشفان ويستمعان باستمتاع .
ثم جاء صوتها صافيا هادئا :
ــ خمس سنوات بعدت عنك ، فلم تطلقنى . هذا ما جعلنى أعود .. أعرف .. العيب فى أنا .. انى ألعن اليوم الذى ولدت فيه .. أعرف اننى لا أنجب .. رحمى طفيلى .. وأنت ، ما ذنبك ؟ ولكن ما ذنبى أنا أيضا ؟ .. خمس سنوات بعدت عنك ، لم تطلقنى .. هذا ما جعلنى أعود .. صدقنى .. الخارج بالنسبة لى عدم .. الجميع ينظرون الى كشىء فى غير موضعه .. أقرأ فى نظراتهم قولا واحدا يكاد يكون اتهاما « لماذا لا تعودين الى بيتك ؟ أليس لك بيت ، يا امرأة » وهأنا أعود .. على أى حال ليس فى قلبى سوى العرفان بالجميل نحوك ، لانك لم توصد بابك فى وجهى . كان يمكنك أن تطردنى .
نهضت قائلة :
ــ دعنى أغلق النافذة .. أصد عنى النظرات العدوانية المتقدة .
عندما عادت اليه ، وجدته يرقد على بطنه .
بصوت مهدم :
ــ الصداع لا يفارقنى .
جلست الى جواره . وانحنيت عليه .
ــ تريدنى ان أدلك لك مواضع الألم ؟
ايماءة من رأسه .
ــ ربما أمكننى أن اريحك .
ــ تستطيعين ؟
دلكت برفق مواضع الألم فى رقبته وظهره . اطلق أنات توجع ومتعة .
ــ تشعر بتحسن ؟
لم تتلق اجابة . كان قد راح فى النوم .
أسندت ظهرها الى الحائط ، ورفعت وجهها الى السقف . رشفت مابقى فى قدحها ، وتنهدت بارتياح .
عند الباب ، بخطوات واثقة لا صوت لها دخل قط أسود .
صرخت . وجرت الى الخارج صارخة :
ــ لا أستطيع ! لا أستطيع !
ومن الظلام الذى ابتلعها دخلت عجوز تتدثر بشال قرمزى .

تقلب ورقد على ظهره . فتح عينيه دون أن يعرف أين هو على وجه التحديد .

جاءت تقف الى جواره . واطلت عليه .

ـ السر فى كل ماحدث لك امرأة . كانت أمكر من غيرها . دخلت حياتك متظاهرة بأنهـا تحبك ، وتريد أن تشاركك حياتك .

مد يديه عاليا نحوها ، محاولا أن يقول شيئا . لم تمكنه واستمرت تقول :

ـ وصدقتها ؟ خدعتك بنظراتها البريئة وجمالها . ثم اكتشفت بعد ذلك حقيقتها . سقط القناع عن وجهها ، وخرج الغول الذى كان مختفيا وراء الوداعة والكلام المعسول .

تبتعد عنه متراجعة بضع خطوات .

ـ وعرفت على يديها ما الجحيم .

يخفى وجهه بذراعيه .

ـ وما العذاب !

ينفجر فيها بصوت مخنوق :

ـ كفى !

ماضية :

ـ كانت المرأة التى أحببتها ، ورضيت أن تربط مصيرك بهـا أكذوبة حية .. وهما .. حلما داخل حلم !

تتزايد خشخشة الحاكى بعد أن انتهت الاسطوانة منذ فترة ، كما لو كانت تريد أن تمنعها من الكلام .

يتلوى جسده .

ـ وفى هذه الغرفة ذاتها التى ترقد فيها الآن ، تعرف انت ماذا فعلت بك .

تمضي متراجعة الى الباب .

برهة صمت .

ـ مضيت شهورا تلو شهور اقاوم الكراهية التى بدأت تزحف الى قلبى .. طوال شهور وشهور قاسيت من الوحش الذى خـدع ابنى وتزوجه .

تمهلت عند الباب ، ومضت قائلة :

ـ طوال حياتى كنت أدعو الناس للحب والمودة .. اسود المستقبل فى عينى ، أنا التى كنت أمنى النفس بشيخوخة آمنة فى بيت ابنى ، وانهار صوابى ..

عادت الى الحاكى توقف حشرجة الابرة .
ثم استدارت قبل أن تبتلعها الظلمة تقول له :
ـ لكن لماذا أحكى لك كل هذه الاشياء ؟ لماذا ؟
خرجت .
عاد ، فتقلب ، ورقد على بطنه . مضى نظره عالقا بحذائها الملقى على الأرض .. أسند خده الى ظهـــر يده ، وقال بصوت يغــالبه النعاس :
ـ هذا الحلم كل ليلة !

الأحــلام



الأحلام

من الصمت المطبق ، وفد صوتها ، مثل نبوءة :

ــ بعدى لن تحيا . ستموت بداخلى .

ــ أعرف . سيكون للآخرين وعى جديد . وددت الا يكون النسيان مصيرك .

ــ سأولد فى أعماق غيرك ، كما سبق ان ولدت فى أعماقك .

يصمت .

ضاحكة بوحشية :

ــ هل تغار ؟

بصوت مكسور :

ــ أنت ابنتى .

مستنكرة :

ــ بل عشيقتك . لا تنكر . لا أحد يسمعنا .

ــ متهورة ، متجاوزة للحدود .. هكذا أردتك .

ساخرة :

ــ اردتنى مرتبطة بعالم غير هذا العالم !

ماضية فى سخريتها :

ــ وبزمن غير هذا الزمن الحاضر ؟

متهمة :

ــ لم تقدر أى تعاسة ستجلبها على ، كما لو كنت لا أعنيك فى شىء .

تنكس رأسها ، فينهمر شعرها على صدرها . يلمع متماوجا فى نور القمر الخافت .

تتماسك ، وتقول :

ــ لكنى ، سأمضى أعذب من يقترب منى . سأدحض كل واقع . أنا اتهام .

تدفع بجدائل شعرها الى الوراء ، وترفع رأسها :

ــ كل أولئك الاغبياء الذين امتلأت جيوبهم • كل أولئك الناجحين في اسواق الواقع • كل أولئك الملوثين الذين يرتادون حانتي ، انا اطمرهم • وفي حمرى اذيبهم .اغرس اظافري في اعناقهم ، وارشفهم على مهل . يرمون نقودهم تحت قدمي ، وتحتهما يرمون ايضا ، كل ليله . انا غانية ، غولة ، عنقاء ، لا أرحم . ولماذا أرحم ؟ هل رحمتني أنت لا أمتصهم ، وأمضي متجددة على الدوام . لم لا تجيب ؟ أجبني !

تفد من الخارج صيحة طائر تنطلق من قمة شجرة . نداء مليء بالرغبة والوله .

يمضيان الى الشباك . ينصتان الى الطائر البعيد .

تقول باستغراق :

ــ رائعة صيحة الحب هذه . من المجهول الى المجهول تصدر .

يبتعد الطائر . ويخمد صوته .

يعودان الى وسط الغرفة . يربت على شعرها ، ويقول :

ــ شيء غامض انت ، ناء عن الحقيقة المكشوفة .

متمردة :

ــ بل قل : شيء منفي أنا .

يضحك .

تقول :

ــ هكذا اردتني ، لتعذبني . لم يكفك أن تعذب نفسك ، فأردت العذاب حتى للجنين .

بعد برهة صمت ، تسأل :

ــ من أنا ؟ قل لي من أنا ؟ من أنا ، يا أبتي ؟ امرأة من ماخور ، أم ربة قصر ؟

ــ أنت بذرة تفسير .

بمرارة ، تقول :

ــ دون أن يكون لي شأن بأي تفسير ؟

ــ أنت على الدوام أبعد من الكلمة المتحدث بها ، وتبـــدأ بك كل بداية .

يذهب الى الشباك ، ويحكم اغلاقه . يخفض صوته :

ــ لا شأن لك بأحد . أنظري الى الجميع نظرتك الى غرباء ، لأنهم عني أنا غرباء . أتسمعين ؟

تومىء برأسها ، وتقول :

ــ أردتنى أقحوانة ، أنظر اليك بعيون ولهانة . اذا غبت نكست رأسي ، وفى العتمة مضيت بعيون نعسانة ، انتظر عودتك .

يذهب الى الباب ، يرهف السمع مرتابا . ثم يعود اليها . يقول بصوت مرتعش :

ــ لست منهم . ولا أنت لهم .

وبصوت حاد مبحوح :

ــ أتعتقدين اننى جلبتك لهم ؟

ــ أعرف . من اجلك جئت .

ــ سوف تكونين للآخرين سرابا . أتفهمين ؟

ــ اللعنة على الآخرين . سرى عندك .

تكاد تبكى :

ــ فى بعض الاحيان ، عندما أفكر أخاف ، أخاف من نفسى ، انى عجوز قديمة قدم الزمان ، رغم كل المساحيق والنضارة البادية على أنا عجوز الى حد مخيف ، جذورى تضرب بعيدا فى دياجير الماضى .

يمسك بذراعها ، ويجذبها نحوه برفق :

ــ اهدئى ، يا صغيرتى . تعالى الى . أنت سر الصبا الأبدى . ليس للزمن عليك سلطان .

تركع عند قدميه ، وترفع اليه عينيها الداكنتين .

ــ مرتبطة أنا بخالقى ، الذى منحنى الحياة .

يربت على شعرها :

ــ بل أنت تمنحيننى تجربة الاتصال بالوجود . ضيعتنى امك ، وأنت أعدت لى ما ضاع .

يتنهد :

ــ ذكرى بعيدة .

ــ ما الذى تذكره ، يا حبيبى ؟

ــ يتلألأ فى أعماقى شعاع من زمن مفقود .

يجلس . تسند رأسها الى ركبتيه . يبدأ فى الترنم بأغنية قديمة تبعث الهدوء الى قلب الفتاة .

تسأله :

ــ تريدنى أن أهدأ ، حقا ؟

ثم فى دلال تقول :

ــ لن أهدأ الا اذا قلت لى هل أنا جميلة ؟ هل لى معنى ؟

ــ ليس الجمال مرادفا لمعنى . أنت محارة . ينصت فيها من

يحبك الى صوت البحر الذى ليس فيها .
خيم الصمت .
ثم عادت تسأل :
ـ من أنت ؟ من أنا ، يا أبتى ؟
ـ لا أعرف .
ـ حسنا ، قل لى كيف جئت ؟
ـ اسمعى ، اذن . فى البدء كانت ظلمـــة ، فكرت فيك . أضيء الجسد الأسود من الداخل بضوء باهر ، عكس طوال الليل ظلالا .. كان الجو رمزيا ، اللون أصفر . أصفر تحول الى ذهب . قالوا لى « كفاك حديثا عن الاحلام » قلت « تولد الاغنية ثم يأتى المغنى » كانوا يقولون « ليس هناك من هى مثل تلك التى تريد » فأقول لنفسى « محال ، اننى أراها هنا فى خيالى ، فى أعمق أعماقى » وأبصرتك تقبلين . قلت لأمك « من تلك التى فى ثوبها الناصع البياض تنزل من قمة الجبل ؟ » قالت « انها الدموع » وضحكت . ضحكت بشدة حتى زلزل الوجود .
تنهض .
ـ اقترب منى . خذنى فى أحضانك .
ـ انفصلت عنك . أبدو ازاءك منبوذا ، لا دنو لى منك .
ـ انت لا تريدنى .
ـ اذا أخذتك بين ذراعى وجدتك ظلا .
ـ لا تريد أن تلمسنى .
ـ تلتبس الأمور على عند الملامسة .
ـ بطيفى تريد أن ترتبط ، هذا ما تريد .
ـ أن أظل أتخيلك . هذا ما أريد .
ـ عن بعد لن أكون أنا ، يا حبيبى ، بل صورتى ، وســــيكون افتتانك بى عشقا لصورة .
ـ سيكون ما بيننا استحالة . أعرف ذلك ، وأينما جلت ببصرى رأيتك .
برهة صمت .
ـ غامرت بالكثير ؟
ـ حتى بحياتى غامرت .
ـ وكنت فى ذلك أشقى الاشقياء .
ـ وأسعد السعداء أيضا .
ـ ومن أجل ماذا غامرت ؟

ـ من أجل صورة .
ـ كنت فى منفى .
ـ وكنت أنت المنفى . بلا مؤانسة ، محروما من الحضور الراسخ .
كل شيء كان يجب أن ينكر حتى تصبحين ملموسا ممكنا ، يابنيتى .
ـ أكنت خائفا ؟
ـ ليس بامكانى أن أنكر . لكن كان لزاما على الامساك بصوت يحاول أن يمضى متجردا لا من البشر والاحداث فحسب ، بل من الزمان والمكان أيضا . صوت يجب أن يصمت الجميع حتى يفد الى آذاننا .
ـ أنا ، أذن ، صوت ؟
ـ صورة تجسدت من خلال الصمت . نتعلم الكثير فى العزلة .
ـ العزلة جرح .
ـ ليس بجائز الشكوى منه .
ـ رحلة لا نهاية لها .
ـ أو على الأقل لا يعرف الربان أين مرفأ الوصول .
برهة صمت .
يتناول راحتها .
ـ أصبحت كلى لك . ماعدت أتنفس الا من خلالك .
ـ مع مجيئى انسحبت من العالم لتتوحد بى . ولكن ما كان لك انت وجود قبلى . أنا الأغنية .
ـ أودعتك عصارة حياتى . وماذا بقى لى بعد ذلك ؟ ترين ماحولى . خواء بخس الثمن .
تعود الى السجود أمام كرسيه ، وتقول :
ـ أنا منك ، لكننى فى النهاية لست أنت .
تسند رأسها من جديد على ركبتيه . وقد بدا فى عينيها التعب .
قال لها :
ـ والآن ، نامى ياحبيبتى ، نامى .
أطبقت جفنيها . خيم الصمت . وخفتت الأضواء .
دقت ساعة حائط فى مكان ليس ببعيد . ابتلع الليل بالخارج أصداءها .
استيقظت الفتاة . جالت ببصرها فى أرجاء المكان . وقالت :
ـ كنت أحلم . أحلم أنك فقدتنى . انك اخترقت الليل ووصلت الى . نزلت الى الظلمات لتخرج بى . اشترطوا عليك الا تدير لى

ظهرك ، وأنت تأخذنى . لكنك نسيت ما اردت .
ـ من أجلك خالفت الأوامر ، نظرت الى الخلف ، وما كان لى أن انظر . حدقت فى الهـــاوية ، فاحترقت مقلتاى ، وصارت عيناى فحمتين . كنت أريد أن أعرف كنه ظلمتك الأبدية .
ـ أما كنت تريدنى جسدا دافئا ؟
ـ لو كانت جوليت قد عاشت أكانت تصير شيئا ذا بال لحبيبها !
ـ اردتنى حقيقة معنوية . وبذلك فقدت سعادتك . زوجتك فقدت . فقدتنى .
ـ هذا ما أفعله كل يوم . لهفاتى الى الحيـــاة الرغدة فى وضح النهار أضحى بها كلها من أجل ، من أجل ..
يسند رأسه بيديه ، ويتهدج صدره .
ـ من أجل ماذا ، ياحبيبى ؟
ـ من أجل أن أرى فى الليل مايخبئه الليل .
ـ حماقة غير مبررة .. ككل تجاوز للحدود ...
ـ هذا قدرى ومصيرى .
ـ وأنا .. من أنا ؟
ـ تريدين أن تعرفى من أنت ؟
برهة صمت وترقب .
ـ تريدين حقا ؟
برهة صمت أخرى . وتلمع عيناه بالذكرى الحبيبة .
ـ وأنت صغيرة كنا نلعب لعبة .. كنت تبحثين عنى وراء كل الابواب .. بينما كنت أنا أختبىء بداخلك .. وأهمس من الخلف فى أذنيك : حبيبتى عمن تبحثين ؟
ـ كان هذا فى الزمن الغابر ..
ـ حقا ، زمن البراءة قد ولى .
ـ والآن ؟
ـ أنت خطيئتى ، خطيئتى الرائعة . انت الشىء الوحيد الذى انتزعته وجلبته معى من تلك الجنة البعيدة ، البعيدة ، التى ربما ما وجدت قط ، والتى طردت بسببك منها ..
تنهض . تنضد شعرها ، وتصلح هندامها . تهم بالانصراف .
ـ تمضين ؟
بضحكة شرسة :
ـ هل نسيت ؟
تلقى فى المرآة نظرة أخيرة . وتقول :

ـ للحانة قوانينها الصارمة ، ولابد أن أكون هناك . عشاقى ، عشاق كل ليلة ، بانتظارى ، كل ليلة .

عند الباب تتمهل وتنظر اليه من بعيد .

ـ أما أنت ، فسأنتظرك . دائما ، سأنتظرك ، بلا عجلة ، بلا قلق ، مطمئنة مثلما انتظر الشمس فى الصباح ، والمطر فى الشتاء ، والاحلام التى تجىء ثم تعاود المجىء فى الليالى . لاننى واثقة من مجيئك ، سأنتظرك فى الظلمة ، كى تأتى لتنتشلنى ، وتفتقدنى .. فأنت بعدى لن تحيا ، وبداخلى ستموت ، دوما .

تخرج .

تزوجت جِنّيه



تزوجت جنية

قال لى :

ــ لن تصدقنى . أحببت جنية ... عشقتنى بدورها ، وأسلمتنى جسدها ، قالت لن « ستكون فى رغد من عيشك ما دمت راضية عنك . ستكون أعمى ، وأنا عيناك . بى تبصر . فاذا حدث وأغضبتنى وعصيتنى فالويل لك » .

كان لقاؤهمـا الأول فى بيت صديق أعزب . عندما طرق الباب فتح ، وهمس له محذرا . ثم أجلسه فى الصالة . وبعد ذلك أدخله الى غرفة جانبية ، حيث رأى حسناء ممددة على الاريكة ، نصف عارية . أومأت اليه وسألته ، وهى تمسك بثدييها بين راحتيها ، ان كانت تروق له . وعندما رد عليها بالايجاب مرتبكا ، ولم يكن يسعه أمام جمالها ، أن يكون رده بغـير ذلك ، ضحكت وقالت له « ماذا تنتظر اذن ؟ » تقدمت نحـوه . سألهـا « من أنت ؟ » قـالت « طوفانة » . مدت ذراعيها اليه « أنظر ، ماذا أعطيك ؟ » فتحت راحتيها « نهدى » . انكمش . نظر الى صدرها العارى . فى موضع النهدين جفنان مطبقان . قالت « خذهما اذا أردت . أطبق عليهما قبضتك بشدة . فهما لك » وجذبته اليها .

عندما أفاق كان مسجى على أرض جرن مهجور ، وقد انبسط ذراعاه ، كما لو كان مصلوبا . أحس باجهاد شديد . أقسم ألا يعاود مثل هذه العلاقة . على أنه منذ تلك الليلة ، عنـدما يرقـد نصف نائم فى ظلام غرفته يرى امرأة فارعة الطـول ، محجبة الوجه ، ترتدى ثيابا بيضاء . تقترب منه .

قال لى :

ــ فتحت عينى ، وجدتها تطل على فى سريرى . سألتها « ماذا تريدين ؟ قالت « ألا تعرف ؟ » عدت اسألها قالت « يا ظالم ، الا تعرف ؟ » قلت « افصحى » ضحكت بشدة ، ومدت الى راحتين رسم فيهما عينان وقالت « نهدى » .

حاول أن يتمتم ببعض الادعية الطاردة فتسمرت شفتاه ، وشل عن أن ينبس بكلمة .

تمكن من أن يضغط على زر النور كمثرى الشكل الذى كان يحتفظ به تحت وسادته . وما أن تدفق الضوء الى غرفته حتى اختفى الشبح . وعندما أفاق وضع حجابا تحت رأسه، وعاد يطفىء النور . ولكن ما أن خيمت العتمة حتى بدت المرأة من جديد . وقالت له « الأحجبة لن تنجيك منى » فعاد يضىء النور على عجل . ونهض يبحث فى أدراج دولابه عن مسدس قديم كان يحتفظ به للطوارىء عندما كان يسافر لتحصيل ايراد عزبة العدوى باشا . دس السلاح النارى تحت الغطاء على مقربة من يده اليمنى . وامتدت يده الأخرى مرتعشة الى النور يطفىء النور من جديد . وما لبث أن ظهرت المرأة أمامه ،وتوعدته قائلة « خاب سعيك . ولا حتى قنبلة زمنية ستنجيك . حذار من المراوغة . انى أحبك ، ولن تهرب منى . انت عشيقى وفريستى » .

لم يعد زر النور يسقط من أصابعه . مضى صوتها يفح فى أذنيه « لن تأخذك منى أخرى . انت ترانى منعكسة على مرآة بداخلك » وتضحك . ولكن كان ثمة صوت بأعماقه . ربما كان صوت أمه ، يقول « لا تصدقها . انها تريد أن تلعب بأعصابك . ليس بداخلك سواى ، أنا ، أمك ، التى احتوتك وأرضعتك صغيرا وشقيت كى تربيك ، لتشب رجلا ملء ثيابك » كانت تقع مشاجرات بين صوتى الأم وخاطفة ابنها ، بين الحماة وعاشقة الابن .

قال :

ــ لجأت الى استئجار الخدم . لكن سمعتى ذاعت فى الحى ، فلم يكن أحد يرضى بخدمتى . وبعض الخادمات رفضن المبيت مع أعزب فى بيت مقفل . فطلبت من صديقى عمار المنقول حديثا أن يأتى لينام معى . كنت أخشى أن تدفعنى هذه المرأة الى أن أفقد صوابى ، بل وأن تودى بحياتى ايضا . وقد حرصت ان أخفى عن صديقى كل شىء .

فى الليلة ذاتها التى جاء الصديق ، تناولا بعض الاقداح . وكانت هذه المرة الاخيرة . صحا الصديق بعد منتصف الليل بساعتين ، وهو يصرخ فى رعب « رأيت امرأة فارعة الطول . ترفل فى ثياب بيضاء ، تدخل البيت ، وتجوس فى الغرفة داخلة خارجة دون أن تفتح الباب » . ثم هب الصديق ، وارتدى بعض ثيابه على عجل ، وغادر البيت ، وقد استبد به الانزعاج . صم أذنيه عن توسلات صديقه ،

وقد مضت تلاحقه فى بئر السلم ، ومن الشباك ، وعبر الشارع الذى خلا من المارة فى تلك الســاعة من أخريات الليل . ولم تفلح رطوبة الهواء أن تلطف من التهاب جبينه وراحتيه وجوفه .

سألنى :

ــ ماذا بقى لى أن أفعل ؟

وأردف يقول :

ــ قررت أن أرحل . أن أترك البندر كله الى مدينة ســاحلية نائية ، دمياط . وما أن وضعت قدمى هناك حتى اعتزمت الزواج كى أجد الى جوارى جسما يلازم سريرى ليلا ، بلا ممانعة ، جسما التصق به اذا ما استبد بى الخوف وطاردتنى الرؤى .

فتش كمخبر عن شريكة للفراش . بحث وسأل على عجل حتى وجد بنت الحلال . لم يرها قبل الزواج الا مرة واحدة ، عنــدما دخلت الى غرفة الاستقبال لتقدم القهوة الى من جاء يطلب يدها . جلست على الاريكة قبالته منهدة منكسة الوجه ، فلم يكن يرى سوى بريمة رأسها ، وشعرها الأحمر المنسدل على كتفيها ، حاجبا أغلب القسمات . كان بدوره مرتبكا ، فلم يلحظ الكثير ثم بدت له ياسمين فى ثوب الزفاف الأبيض حسناء فارعة الطول . وأحس فى ابتسامتها المشجعة ماقوى من عضده . وعلى الرغم من أن جسدها لم يكن فى حرارة جسد الجنية التى التقى بها عند صديقه ثروت ، الا انه كان يتحاشى أن يغضبها ، فقد كان غضبها مقترنا فى أعمــــــاقه بذكريات ليالى قبل الزواج البيضاء . على أنه كلما تقدمت أيام الزواج اكتشف فيها المزاج الشهوانى ، والمطالبة كل ليلة بالحق المقسوم ، وغضبها عند الرفض . وقد انتهى به الامر الى أن استسلم لهـــا تنهشه . أصبح لا يعصى لهــا طلبا . فقد كانت ملامحها ــ وقد زاد تأكده من ذلك ليلة بعد ليلة ــ تتحول ، دون حاجة الى اطفاء النور ، فتشبه ، اذا ما ابتسمت واذا ما كشرت أيضا ، ملامح الجنية . وأضحى يسمع ــ وهو مسجى فى السرير على ظهره وقد انبسط ذراعاه ، كما لو كان مصلوبا ــ صوت طوفانة يقول « حاتروح منى فين . ده أنا جواك . حافظاك وفاهماك . مطــرح ماتروح تاخدنى معاك . وعد ومكتوب . ليه وليك » .

قلت له :

ــ جنية عششت فى جوفك .

قال :

ـ لهذا حضرت اليك . الأرق لى بالمرصاد . لا يترك لجفنى فرصة اغفاء . فاذا أثقلهما التعب ، وارتخيا على المقلتين ، انتفض محملقا فى فراغ الغرفة ، السقف من فوقى يهبط ببطء ضاغطا على صدرى ، كاتما أنفاسى ، ساحقا عظامى . اعطنى أى علاج . انى مستعد أن أجرع السم ، لأنجو من هذا الحصار وتلك الملاحقة .

قلت له :

ـ ليس عندى ماينفعك .

وانى لأقول لكم :

ـ هل عند أحدكم دواء لحالته ؟

المـرأة الروبوت



المرأة الروبوت

- ١ -

شمس كبيرة ، مستديرة ، ساخنة .

شيء أكبته . يجاهد للصعود الى لسانى . احاول أن اخنقه يختبيء فترة ، ثم يبحث عن منفذ يتسلل منه . يملأ داخلى ، يكاد بالدموع يخنقنى . انه .. انه .. لا أقوى أن أقول ماهذا الشيء الذى يعذبنى .

فى خلوتى هذه لا يسمعنى احد . أحادث نفسى فحسب . لابد أن أبوح بسرى . تلك الشمس الكبيرة ، الساخنة ، ثدى معلق فى صدر فسيح أسود . ثدى نسائى ، ملتصق انا به . ارشفه ، ولا اقوى على البعاد .

سنون مضت ، وكأنى واقف عند تلك اللحظة التى لا تنتهى . هل تعرف ماذا يعنى أن يتوقف الزمن ؟ هأنا أفصح عن أسرار نفسى . لكن فى هذا الصمت والفراغ ، تكاد تكون الكلمات مجرد جلبة ، تضيع هباء ، ويعود كل شيء الى ما كان عليه ، كأن شيئا لم يحدث ، كأن ما لشيء معنى .

ثدى أبيض .. شمس باهرة .. ليس بى الم .. فرحة بهيمية فى أحشائى ترفرف .. فرحة ملعونة تجتاحنى ، وفى دمائى تغلى .. لا أستطيع . منذ سنين تؤرقنى فعلتى .. كنت أريد على الدوام أن أحس بوجود ذلك الشيء . أصرخ . أبكى . لا جدوى .

كان النظـــام صارما ، والتجـــارب أوصلت الى غسل أعماقنا . لا عواطف ، بل عقل يعمل مثل ساعة دقيقة منضبطة . كل شيء زال. حتى تلك الشمس الكبيرة الحارقة ، خيل الى انها انطفأت فى أعماقى واسترحت ، لكن الذنب لم يكن ذنبى .

منذ أن رأيته ، وأنا لا أعرف طعما للراحة . ما أن تخيم الظلمة حتى يضيء ذلك الثدى الابيض .. وفى أحلامى .. ثدى أبيض .. بلا جسد .. ظلمة ثقيلة ، يبزغ فيهـــا ثدى أبيض ، مثل شمس عارمة ، بى ملتصقة .. تحرقنى .

— ٢ —

عندما قالوا لأمى « ابنك يريد الخروج ، يا امرأة » لعنت الرحم الذى حملنى .

أفضل أن أنام الى جوار انسان آلى . انه أكثر فهما ، متى ضبطت أزراره ، وغذيت بالمطلوب ذاكرته . قلت ان تكونى طبيعية ، على سجيتك ، لا تتصنعى ، لكن هذا لا يعنى أن تمضى جدباء يابسة مثل عود كسرته الريح وألقت به على الأرض الصلبة ، صخرة عاقر لا تتيح لزرع أن ينبت ، كيس مفلس ، عظمة رميمة ، تابوت ، أســـلاك مقطوعة ، ماء يدلق على نار ، هشيم ، أرض خراب ، أبواب موصدة ، درجات مهدمة ، روافـــد نضبت ، صيحة فى بيـــداء تتبدد وتخلف وراءها حسرة .

صاحت زوجتى :

ـ اقتلوه ! واذا خرج امنعوه !

وددت أن تفهمى ، أن تصيرى سخية ، وأن تبذلى مثل أميرة تنثر دنانيرها على الخلق الغفير تحت شرفتها . أما ذلك الخواء ، فانه يهدمنى . لن أحتمل طويلا . الليالى تفلت وتضيع .

قالت زوجتى :

ـ أريده حيا أو ميتا ! لا تتركوه !

— ٣ —

حتى هى ماعدت أطيق أن أقربهـــا أو أتقبل لمساتها وأنفاسها الساخنة على رقبتى . أصبح جسدها يتبخر من أمامى . تنزلق من بين يدى ، وأفقدها من حضنى .

سمعت من يقول « تعال ، لنذهب » فحيح أفعى . التفت حولى . لا أحد . سألت زوجتى . هزت رأسها نفيا ، وهى ترمقنى بعينين حائرتين متوجستين . لكننى سمعت من يقول « لنذهب » الى الفراش نذهب ؟ ـ لم تتحرك شفتاها ـ أم الى الجحيم ؟ أم الى أين ؟ جريت الى الشرفة . كنت على وشـــك الاختناق . فتحت مصراعيها بشدة . كان البحر يمتد أمامى عميقا ، ماكرا ، داعرا ، شهوانيا ، كما لو كان قد فاض بفحش الدنيا كلها . كان القمر قد انسكب فى البحر البنفسجى . والمويجات الساكنة انبسطت مثل الصمغ على رمال الشـــاطىء . تمنحنى جسمها كله . ولم تكن تحبنى . سبقتنى ، وقفت فى الشرفة ، مولية البحر ظهرها . مضت تتأملنى بعينيها المظلمتين ، مثل كهفين غائرين .

سألتنى بعد برهة :

ــ تريد أن تلقى بنفسك ؟

لم أنبس بكلمة . كان الصراع بداخلى ريحا هوجاء ، تصفع جوانحى .

ــ تريد أن تتركنى ؟

أخذت تخلع ثيابها على مهل . كنت أرتعد . طالما شدنى هذا الجسد الانثوى ، وتحدانى ، وأحكم وثاقى حيث أنا . كانت الآن عارية تماما . على الدوام تعرف كيف تغرينى ، وتنسينى نفسى . عارية هى فى الشرفة ، مثل أول امرأة عرفتها الأرض البكر . تداعب النسمات شعرها المتطاير ، وكل ملابسها انسكبت عند قدميها أمواجا بلورية . تلألأت الومضات الداعية فى عينيها ، وأضاءت بشرتها مثل طبقة من اليورانيوم .

أردت أن أذخل ، أن أعود أدراجى الى الغرفة المحكمة ذات الجدران المحددة ، لكن المرأة العارية نهتنى عن ذلك . تسمرت قدماى بالأرض . بسطت ذراعها نحوى مهددة ، مثل بندقية مصوبة ، والظفر فى طرف أصبعها المشير الى منقار جارح .

أتضاءل . الارض تميد بى . تشبثت عيناى بكتفى المرأة العارية . انتصبت واقفة بينى وبين القمر . لم أعد أراها ، بل أصبحت من خلالها أرى القمر ، كما لو كان جسدها شفافا ، لا يحجب ضوءا أو شعاعا . لم يعد شىء يحجب عنى القمر . أسمع نداءه الأثيرى ، أينما كنت . أصبح الناس من حولى زجاجا ، يخترق القمر قاماتهم بحرية . ينفذ الى هامسا ، ويمد الى ذراعا طويلة شاحبة محرضة داعية متوسلة .

أسرعت الى الشرفة . ألقيت بنفسى . سقطت . لم أسمع صوت ارتطامى بالماء ، وغصت فى سكون مثل بخار ينساب فى بخار ، مثل كف ملساء تتحسس قماشا من القطيفة .

لم يحرك البحر من حولى ساكنا . لم تهتز موجة . لم تظهر على السطح رغوة . لم ترتسم على الماء دائرة . لم يعد لجسمى ثقل ولا حجم . وماعدت أشغل حيزا فى هذا الفراغ .

من بعيد ، من بعيد جدا ، ربما من آلاف السنين ، سمعت صرخة امرأة ونداءها :

ــ زوجى سقط .. راح فريسة للأسماك ..

هل أحد يسمعنى ؟! هل أحد ينظر الى ؟! هل أحد يكترث بى ؟!

مضيت أشق الفضاء بلا جلبة ، سكون فى حضن سكون . مددت ذراعى عاليا ، عاليا جدا . بذلت قصارى جهدى حتى أصل يدها . أمسكت أناملها . أطبقت عليها ، لكننى كنت قد أطبقت أصابعى على خواء ، على راحتى أطبقت فحسب .

أراها من فوقى ، تطـــل على من برج . تكاد تنكب على بسخاء وحيوية مولولة . رقبة طويلة ، طويلة . شعر تتلوى خصلاته ، مثل قرون جديان جبلية . شفتاها باهتتان ، انفرجتا عن أسنان خربة .

راح وجودها ينهـــار من أمامى مثل كتلة من التبن الهش ، مثل سائل يفقد شكل الوعاء الذى يحتويه اذا ما دلق على الأرض . بخوف خرافى ، مثل ذلك الذى ينتاب صبيا يرى بالليل شبحا فى المقابر . صحت أناديها . بدا صوتى ، كأن ثمة شفاه خفية تنفخ فيه بشدة ، فتبدده حتى لا يصل الى الاسماع . مضى ساعداى يشقان اللجـــة . كنت أشعر أننى قد انفصلت وتحررت . انى مكتمل ، أتدفق حيوية . كنـــا وحدنا . أنا والفضاء . لا أحد معنا . يلتف كل منا بجســد الآخر . تحسست كل موضع من بشرة هذه الحبيبة . هذا ما كنت أشتهى . ما عاد الجسد يسافر ، يهرب ، يذوب ، يرحل بعيدا تاركا لى الجلد الخارجى لمخلوق وحشى أجوف . ومع كل حنايا جسدها . سرت لمستى ، وقد تركتنى ، بلا اكتراث أفعل ما حلا لى . هذا ما كنت قد ولدتمن أجله على الدوام يكفينى الحلم عندما تعوزنى الحقيقة . وجدت بسقطتى اذن نفسى . وها أنا أحتضنها . ومن تحتى تمور فى صمت لهفات موتى الأرض ، وحسراتهم على ما لم يبلغوه . ولكن لو يعرفون قدرى !

أريد أن تقتلنى



أريد أن تقتلنى

العـــارية

لمعت عيناه وقال :

ــ جدتى . أنا عاشق متيم .

ــ بفتاة ؟

ــ ليس بالضبط .

نظرت اليه العجوز حائرة .

أردف يقول :

ــ ليتها كانت من لحم ودم .

ــ ماذا تعنى ، يا ولدى ؟

مخفضا صوته :

ــ هذا سر . انها عارية تماما .

طوح شعره الاسود الطويل الى الوراء ، ثم قال :

ــ والى الأبد !

ــ ما اسمها ؟

ــ فتاة النبع .

ضحكت العجوز :

ــ جزاك الله خيرا ، يابنى .

ثم سألت :

ــ وأين هذه العارية ، ياعفريتى الصغير ؟

ــ فى المتحف ، يا جدتى .

ضحكت :

ــ لوحة اذن ، أو تمثال .

حازما :

ــ لا تضحكى . هى امرأة خالدة .

كنت أراها

على حجرها ألقى رأسه ، وراح ينظر الى السماء وهامات الشجن من فوقهما .

قال :

ــ امرأة قبلك لم أعرف . ما أن قابلتك أول مره حتى شعرت انك شريكة حياتى ، وانى لن أستغنى عنك .

جاست اناملها فى شعره الطويل اللامع . وسألت :

ــ أما زلت لا تستغنى عنى ؟

نظر اليها نظرة باسمه عميقة وقال :

ــ أليس هذا غريبا فى زمن اصبح السوس فيه ينخر فى العلاقات بين الازواج ؟

سرح ببصره بعيدا ثم قال :

ــ لئن كنت لم ألتق بك الا قبيل زواجنا ، على أننى ، صدقينى ، كنت أراك قبل ان ألتقى بك . كنت أراك ولم أبلغ من العمر سبع سنوات .

طبعت على جبينه قبلة ، وقالت :

ــ كيف كنت ترانى ؟ احك لى .

ــ كنت أنصت الى شرح مدرسى بالفصل ، فترتسم أمامى رؤية جذابة . صبية صغيرة ، تقف بين اعواد القصب منكمشة تحاصرها ذئاب متوحشة. ذات حدقات فسفورية . وجهها ينظر الى بالحاح . تطلب منى أن أهرع اليها .

ــ أكان وجهى ؟

نهض . . طبع على شفتيها قبلة ، وقال :

ــ بكل تأكيد ، كان وجهك .

اللعبة الفاجعة

ذات يوم فى بداية تعارفنا ، كدت أدفع بها من أعلى صخرة . قلت :

ــ أقسم لك . لا أهوى البذاءة . اعتبر فحسب الموضوع الحسى موضوعا مرعبا حقا .

قالت :

ــ كل هذا يبدو مقززا ، ومخالفا لمفهومى عن الحياة .

بلغ حبى مشارف الجنون ،

أحسست فى أعماقها انى أزمع بشأنها أمرا . أدارت الى رأسها . أمسكت بجدائل شعرها .

قلت لها بلهجة آمرة ، مرتعش الصوت ، وقد تأجج فى صدرى خبال خسيس .

ــ قولى لى ، ماذا تريدننى أن أفعل بك ؟ قوليه ببطء ، ناظرة فى

أعماق عينى . قوليه بأشـــد الكلمات شراسة ، ولا تخجلى ممـا تقولين !
بهدوء متناه ، قالت :
ــ أريد أن تقتلنى !
صمتت برهة ، ثم أردفت بصوت رصين :
ــ طال انتظارى للموت ، فأسرع به الى !
بضربة واحدة حكيمة هشمت رأس الأفعى . شفتنى من كل نزعة عدوانية .
فى خضم المعاناة ، بحثت أناملى عن يدها لتتشبث بهـا . لكن يدها كانت أسرع من يدى ، وأمسكت بها .
غمرت وجهى موجة الضحك الهستيرى الذى كان ينتابنى ، فلم تتزعزع . أدركت بحدس الوسيط الروحانى أن هذا الضحك نابع من قلب عشش فيه الرعب والظلام طويلا .
قلت لها :
ــ لا تتركينى !
قالت :
ــ ياصبيى الصغير . لن نفترق أبدا !

تحمينى من الحقيقة ذاتها

علمتنى أوليات الحياة . هدتنى الى دعامات الحصافة والمتعة . أعترف بأنى تلميذها .
علمتنى أن ألبس ، أن أنزل سلما دون أن أتعثر ، ان آكل دجاجة دون ان ارمى بقايا العظام على الأرض ، أن أعرف أعدائى ، ألا انفق نقودى بلا جدوى . ودون أن أشعر بأنها تفرض ارادتها مضيت أتحرر من عاداتى المستهجنة ونزواتى المهووسة . وعلى أى حالة مزاجية أكون تضبط مزاجها . ونتصرف بتوافق تام معا .
تدفع الفواتير ، تمسك ميزانية البيت . تختار ملابسى . وقـد صارت بسيطة قاتمة اللون مضبوطة . تجيب على أغلب خطاباتى . أما ما لا تجيب عليه فيبقى بلا رد ، وأحيانا لا يفتح أيضا .
ترعانى ، وتسهر على راحتى . تهيىء الجو الملائم لعملى . وفى الوقت المناسب تختفى كى أفرغ لنفسى . تزين أفكارى ، وتتحمس لها . تتولى تفسير لوحاتى ، ولا تشتط فى النقد أبدا .
من الذى يحكم حياتى ؟ بكل تأكيد ، هى . وهى أيضا تحمينى ــ

عند الضرورة – من الحقيقة ذاتها .

اذا كتبت شيئا فهى التى تجمع قصاصاتى المبعثرة ، ومن كلمات مهوشة تشيد عملا مقروءا . هى الوحيدة التى لا تضل الطريق بين فوضى مخطوطاتى .

بامكان كل رجل أن تكون له زوجة ، لكن هى وحدها تشفى الجراح . تمسك بك بين يديها ، اذا اقتضى الأمر ذلك ، وتمنعك من أن تقدم على فعل يتعارض مع فنك .

تشبع نهمك ، وتظل النبع دوما . تفجر فيك الطاقات الكامنة والاشواق المكبوتة . تقف أمامك أنموذجا ترسمه ، فيكتسب الفراغ شكلا معماريا .

تفعل كل شيء ، بينما تبدو وكأنها لا تفعل شيئا . ولأننى فى دمها أغمس فرشاتى وأرسم ، أوقع على لوحاتى باسمى واسمها .

صورتى لم تستنفد

بصوت متعب ، قال لها :

– انى خائف . كل هذا المديح يبدو لى بعيدا .

بصوت مطمئن ، أجابت :

– ما الذى يخيفك ؟ كل شيء على ما يرام ياحبيبى .

– أخاف أن يكون كل شيء غير حقيقى . أخاف أن أصحو يوما فأجد الجنون قد أطبق على ، أو العجز قد شل يدى ، أو أجد الموت ذاته قد ...

وضعت يدها على فمه . أسكتته :

– ضع هذه الوسادة تحت رأسك . واعطنى يدك .

– امسكى بها جيدا ، أيتها الحبيبة . اضغطى عليها ولا تتركينى .

اغمض عينيك ، ونم ، ياحبيبى . وعندما تستيقظ ستجدنى على الدوام بجانبك ، مثل تمثال القط الفرعونى على المنضدة بجوارك . سأحضر لك قهوة الصباح . وأقول لك انهض . انك لم تنجز بعد كل ماهو مقدر أن تنجزه . لم يحن الوقت بعد لموتك . سأقف أمامك لترسمنى ، وترسمنى ، وترسمنى . لم تستنفد بعد صورتى ، يا حبيبى . عارية ، نصف عارية ، مدثرة بالقطيفة والحرير . القلائد على صدرى ، وفى أصابعى خواتمى ، ومن أذنى تتدلى أقراطى . ما زالت صورتى لم تستنفد . أبدا . لن تستنفد .

ظلال على جسد



ظلال على جسد

أنا محاكاة لشيء موجود فى عقله . أنا ايماءة لماضيه وحاضره ، أما مستقبله فتلعب به أنامله لعبة الخيال والعاطفة .

صورة واضحة لشكلى لم تكن لديه . هذا كان دافعه الى الامساك بى فى قبضته . كان يفكر فى ليس كلحم ودم . ثم يمضى يفرض ارادته على مادتى . ســـمعته يهمس : أريدها نحيلة نحيلة ، هشة ليس كالرخام بل كالزجاج ، كالبلور أريدها وفى نقائه أيضا .

وهمست اليه بالاغراء الكبير ، أزهرت الســـــماء وردا أزرق فى أغصان الشجر ، عبق أريجه الوجود . لم يعــد النور يغنى الا بصوت خفيض ، نور يضىء القلب ولا يعمى البصر .

من اغراء الى اغراء . قطرة قطرة من القنينة ، حتى امتلأ سكون روحه بالهمسات ، لكنه كرجل ما لبث أن عرف انه لن يكون هناك نهاية لمثل هذه الاغراءات .

صاح يطرد اللمسات فى هدوء الليل قائلا :

ــ متى تخاذلت مرة ، فستفريك مفريات شتى بالتخاذل مرة تلو الأخرى !

انهار على كرسيه الخشبى ، وبين راحتيــه انكفأ وجهه . وقال باكيا :

ــ وفى النهاية .. وفى النهاية مجرد عمل مشوش !

هب من جلسته المنكسرة . مضى يركل كل ما حوله فى هياج . للرفض العنيف غايته .. « أريد شيئا لى وحدى . أقنعة خزفية ، ببغاوات ، أظافر مصقولة .. لا أريد ! » يدفع بيديه الاشياء ، فتقع على الارض وتتحطم . « شىء لا يشاركنى فيه غيرى ! » ومع كل دفعة كنت فى آن واحد انكمش واتخذ شكلا حاسما .

أيها القلب الحافل بالأحلام ، بلواك أعرفهـــا .. اليدان فى الوحل غارقتـــان ... من يدرى ؟ قد تصـــحو ذات يوم ، فترى اليدين السمراوين عامرتين بالنجوم ، بعد أن طهرهمـــا المطر . لن يكون

لسعادتك ، أيها القلب حدود ، ولن يقف عائق فى طريقك بعد ذلك .
ستصبح ، ملكا على الحقول والصحارى والبحـــور ، وتتحقق فيك معجزة ، مثل تلك التى حققها السيد المسيح عندما بارك وكسر وأكثر السمك .

صرخ :

ــ سأقاوم دائما ، وأحاول أن أفرض ارادتى !

ركعت أمامه ، وقلت :

ــ لتكن أنت أنا .. لكن زد الصورة وضوحا .. زدها وضوحا .. جسمنى .

أمسك جدائلى بقبضتيه .. ولادة بلا معـــاناة لا توجد . كتمت ألمى . صرخ فى :

ــ أدرك تماما بنية المادة التى اشتغل فيها . لا خضوع الا فى بعض التفاصيل .

لم يكن قد امتطى حصانا قط ، لكن الامر بدا مثل ترويض فرس جموح .

فى فجر ذات يوم سمعته يقول منتصرا :

ــ هأنا أسيطر على الموقف فى النهـــاية . كل شىء جاهز من حولى .

أشفقت عليه من كل فكرة سابقة لأوانها . همست فى أعماقه :

ــ حذار .. قد يكون الامر مجرد خداع للنظر

شردت نظراته ، ومضى يقول كمن يحادث نفسه :

ــ يسير المرء اليوم بطوله يدقق النظر فيما حوله ، ويختبر كل ما يصادفه .. ثم فى آخر النهار ، وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة يتبلور كل ما رآه وخبره فى صرخة واحدة !

كان القمر فوق الجدار ، عاليا هناك وسط السماء ، محاطا بهالة فضية ، مثل سوار . وأنا خلف الجـدار ، من حـولى ثعـابين سوداء تزحف من البحر المهيب المتـــد الى الافق ، حتى يلتقى بالسحاب الرهيب الصاعد الى القمر . أصرخ فى هلع ، والبحر من خلفى يتصاعد هديره فى رتابة كأنه ثكلى تنوح . وأتطلع الى القمر الساهم فى رجاء ، فأراه فى هالته الصفراء وسط الغمائم السوداء يبكى فى صمت .

صاح فى :

ــ كل شىء هنا .

دق على صدره .

ــ كل شيء هنا .

ليل .. ورماد معطر .. ورقتا شجر .. برعم دابل .. وعنق من المرمر .. دفقة أخرى وأبرز صورة واضحة فى عقل ذلك الحبيب القاسي . أحبه ، ألعنه وأرثى له.. متأرجح هو .. ممزق .. منفرس فى الماضى .. يتلمس أيضا وثبة الى المستقبل .. متقلب .. تمر خلاياه من الحياة الى الموت ، ومن الموت الى الحياة عبر اجراءات لا تعرف التوقف .

كلا ، ليس الامر خداعا للنظر .

مطرقة تنهال على ضلوعى .. ومسامير تدق .

ببشرة أكثر خشـــونة مما هو مألوف جئت ، لكن بالليل تتحقق لى بشرة ملساء ، ملساء بأقصى قدر يمكن أن تتيحه خامتى .

مسامير تدق .. حبال تتقطع .. ألقى بدبلتها الذهبية على الارض تتدحرج ، تتدحرج ، حتى استقرت عند سيارة أبيها .. هددوه .. حقروا من شأنه . قالوا « له عشيقة قذرة أمرضته بمرض معد » . قادرة أنا أن أترجم أفكاره .. لعنوه صمد وأعرض . تتأرجح طينتى بعواطفه ، وفى لحظات يأسه وأحزانه تنعكس على ظلال زرقاء رمادية، وتختلج بداخلى فى لحظات طموحه الرعشات التى كانت تحرق انامله عندما كان ما زال يشكل نموذجى .

صلبة أنا .. من أنبوبة معجون الاسنان لم أخرج .. متمردة أنا ، فلبست بقايا انسانية تحجرت .. ولم أغلب بعد على أمرى .. رغم هدوئى الذى يبدو .

فى لحظات الصفاء يبتسم لى ، وأشـــعر بأنامله تلمس جســـدى فأسأله :

ــ تحبنى ؟

يجيبنى :

ــ ميديوزا الغولة قادرة أن تحيل المخلوقات الانسانية الى حجر بمجرد النظر .. الا أنت .

أقول له :

ــ امرأة ضئيلة القدر أنا .

يقول :

ــ تعكسين الجهد الذى تطلبته الحياة منى .

وأقول له :

ـ أنا صورة ما زالت فى مخيلتك .
فيقول :
ـ قطعة من العالم المرئى انت .. مثل صخرة .. مثل عصفور يتأهب للانطلاق .
همست له :
ـ يا حبيبى ، أنت أحببت ظلا ، وفنيت فيه ، وأنا الظل الذى أحبك وفنيت فيك .
صمت .
ثم صمت
لا أحد عاد يطرق الباب .. لا أحد يجىء .. تراكم التراب فى الأرجاء ، وعلا الشحوب وجهه ، وأصبح فى كرسيه شكلا شمعيا فى الفراغ المحيط . الحوائط بيضاء .. بيضاء .. عالية .. لا نوافذ .. الغرفة فسيحة .. فسيحة .. كأنها بلا حوائط ..
التفت الى ذات مساء بعينين واسعتين محمومتين ، وسأل :
ـ تريدين أن تعرفى ؟
همست :
ـ لست بحاجة الى تفسير .
قال :
ـ صقلتك ايقاعات البحر الابدية .
قلت :
ـ لست نصبا يقام تكريما لميت ، أو تذكيرا بحدث جلل .
قال :
ـ أنت الطبيعة كما يجب أن تكون .
ـ أنا ؟!
شكل مختصر أنا ، حفر داخل كتلة ، تجويف أنا أتيح للضـــوء والهواء الدخول الى حياته . أنا استجابة الى رغبة .. رغبته فى استكشاف داخلى بأطراف أصابعه .
أبقيه بكهفى ، وهو قابض على . أنا جزء منه . ثقب فى كتلته . جرح . وهو متأمل فى .. أنا وهو .. أنا وهو كل واحد فى علاقتنا بالفراغ والمساحة والموت ..
عالم خارجى .. زحام .. جزئية فى وجه من خـــلال انفراجة ساقين . أشكال متآكلة فى فراغات محرومة من أى هدف جمالى .. ذباب وهوام .. بقايا لا تعنى سوى سارق قبور أو نابش قمامة .

حملنى بين ذراعيه المعروقتين ، وضمنى الى ضلوعه وقال :
ـ لنهرب . السنون مضت بنا ، ولم يعد فى الامكان أن نبدأ من جديد . القافلة أوغلت فى الصحراء ، ولم يعد بالمقدور أن نعاود الرحيل . الماء قد نضب ، والزاد نفد ، وما من واحة ، ما من نجع ظليل ، على مدى البصر .
سألت :
ـ ولو بدأت من جديد ؟
بنظرة متوجعة ، قال :
ـ لجرحت نفسى ذات الجرح ، ولعنتها ذات الطعنة !
جرى بى بعيدا ، جائعا عطشانا حافيا .. أتى بى الى هنا . هنا ..
حيث انسحب كلانا يستمع الى أنفاس الآخر .. الى خفقات قلبه .. كل منا مركز لوجود الآخر .. ثوب أسود ، فناء يغطيه رخام أبيض ، والغيطان الخضر من ورائه .. وعند الافق من النافذة بضع نخيل لا تحرك سعفه أدنى نسمة .. كل منا يعطى للآخر توازنه .. كل منا يدور حول الآخر .. ومع الآخر يدور الكون .
يدور ويدور .. ويسقط فى كرسيه .
يحاول النهوض .
لا يقوى .. ساقاه لا تقدران على حمله .. خذلته المادة .. بسط ذراعيه نحوى ، وقال بلا صوت :
ـ الاعتقال ..
تسمرت عيناه على .. وفى حدقتيه ارتسمت صورتى .. الى الأبد .
أسلاك مقطوعة تربط بين اشكال جامدة .. علاقات ضارية بين الطينة الصامة وبين الثقوب .. الثقب يكبر ويتسع .. الثقب يلتهم المادة .. الثقب أصبح فراغا .. نقاء فريد .. فريد .. مثل ثعبان الشاطىء فى الفجر وقوس الأفق .. أمواج نائحة تغسل قدمى عذراء فى الرمل مفروستين ..
الجبس تهشم ..
اللون أبيض
على
أبيض

كحمامة
يدك فى يدى
وقفت
بجانبى
فى ثوبك الصدفى
وساقاك
عمودان من الملح
يحملان
قفصا اخضر
انفتح
وطار
العصفور الفرد
مع الموج
الى الابد ..

الجبس تهشم .. لم يسمع لسقوطه صوت .

فى صبيحة اليوم التالى ، جاء الكناس ، أزال من على الارض الحطام وشظايا الزجاج ..

ضفدع كبير ..

قفز على مربعات البلاط .. فى السكون المهيب تحولت الاشياء العادية الى ماهو بالغ الروعة .. شىء أبدى نما من تضافر طويل الاناة بين الحدس الجمالى والحسابات الرياضية .

الزيـارة



الزيارة

أرانى الرجل العجوز نتوءاً ظهر على أحد أصابع قدمه اليسرى .
رفع قدمه وأسندها على الكرسى الذى جلس عليه وأشار اليه .
هالنى منظر أصابع قدميه وقد تقلصت وركب بعضها على بعض .
كدت أهتف متسائلا عن علة التشوه .
بادرت أمى ، وقالت :
ـ هذا لا شىء .. انها الشيخوخة ..
التفتت الى ، وأضافت :
ـ أبوك حدث له المثل .
سألت الرجل العجوز اذا ما كان قد ارتدى حذاء ضيقا .
نفى ذلك ، وقال انه ألف أخيرا أن يلبس الصندل المفتوح .
نصحته أن يجرب المشى . أبى يعزو احتفاظه بصحته الى جولاته الطويلة مشيا على الاقدام فى شوارع الاسكندرية .. بل ودون أن يمسك عصا .
أكد لى الرجل العجوز أنه كان يسير بدوره كثيرا .. لكنه الآن .. لاحظت تحت جلبابه الابيض رعشة خفيفة فى الساق اليمنى المسندة الى الارض .. يلزم البيت كثيرا .
أشاح عنى بوجهه .
انبرت المرأة العجوز شاكية بصوتها المتكسر الرفيع :
ـ انه لا يفعل شيئا فى البيت .. حتى صحنه لا يرفعــه عن المائدة .. وأنا متعبة للغاية .. متعبة ..
أصلحت من وضع الطرحة البيضاء المحيطة برأسها .. وأردفت تقول :
ـ وأنا لا أنهض من مقعدى هــذا الا اذا أزف وقت النوم . أستند الى ذراع البنت سماح .. حتى سريرى .. وألقى بجسدى عليه الى اليوم التالى .. طوال الليل أئن وأتوجع . مفاصلى ، يا ابراهيم ، مفاصلى !
أدار العجوز مقلتيه المجوفتين نحوى وقال :

ـ اننا نقرأ لك كثيرا ، يا دكتور ابراهيم ، ونستفيد .
قالت أمى للمرأة العجوز :
ـ كنت تشكين على الدوام من مفاصلك ، يا ست أم مدحت .
تململت العجوز البدينة ، وقالت :
ـ لكن ليس مثل زمان .. يا أم ابراهيم .. زادت الاوجاع .. زادت .. ما عادت الحقن تنفع .. ولا المراهم ..
قلت للرجل العجوز :
ـ كيف حال الاستاذ حمدى ؟
عاجلتنى المرأة البدينة بصوت بدت فيه رنة فرح مباغتة :
ـ طلق زوجته الاولى .
سألت أمى :
ـ لماذا ، ياست أم مدحت ؟
أجابت بحذرها المعهود :
ـ ما استريحوش ! زوجته الجديدة ست بيت .. لا جامعة .. ولا وظيفة .. أهلها ناس طيبون .. من اسكندرية ..
ثم جلجلت ضحكاتها القصيرة الرفيعة ، وقالت لى :
ـ انها حامل ، هذه الايام ، يا ابراهيم !
طردت بذلك من عقلى اعتقادا قديما بأن صديق صباى غير قادر على الانجاب .
التفتت الى أمى وقالت وقد تكورت وجنتاها الجعدتان :
ـ عشت ورأيت ابن ابني حمـدى .. كما رأيت أولاد مدحت ومديحة .. قالت لى ماجدة أثناء مرضى الاخير « وسترين أولادى أنا أيضا ، ياجدتى » .
سألت :
ـ من ماجدة ؟
قال العجوزان فى صوت واحد :
ـ ابنة الدكتور مدحت الكبيرة ..
ثم مضت المرأة العجوز تقول :
ـ جهزت أوراقها وستسافر غدا الى ألمانيا .. حصل لها زوج عمتها مديحة على عقد عمل فى ألمانيا .. هى فى بكالوريوس الهندسة .. العام القادم .. تصور يا ابراهيم .. تقدم لها عريس زميلها .. رفضته .. تقول انها لا تفكر فى الزواج الا بعد التخرج .. والعريس ضابط مهندس فى الجيش .. شاطرة .. شاطرة أكثر مما يمكنك أن تتصور .. ولكن على خلاف أخيها الاصفر .. خائب .. ينجح

كل سنتين فى كلية التجارة .. منذ اربعة سنوات الآن .
ارتج جسم المرأة العجوز البـــدين ، وهى تفاجئنى ضاحكة بسؤالها :
ــ وانت ، ألن تنجب غير ابنك سامى !؟
قلت :
ــ كلا .. واحد يكفى .. أخشى عليه من الايام القادمة .. الحياة أصبحت صعبة ..
قال الرجل العجوز بحكمة :
ــ ليس من مبدئى هـــذا .. على الرجل أن ينجب عشرة .. ولا يفكر فيما سيكون عليه مصيرهم .
تفحصت قسمات وجهه جيدا . كانت الشيخوخة قــد احتلت وجنتيه وجبينه ورقبته .. وشعره .. واســـتحال ذلك الرجل الوسيم الذى كنت أعرفه منذ ثلاثين عاما الى كتلة خشب نخرة .. الى ثمرة تين عطنة .
تململت العجــــوز على شلتتها ، وحركت ساقيها المترهلتين المنتفختين .. وربما كان ذلك دليلا على سوء الدورة الدموية .
ثم تصاعد صوتها المتكسر يخترق الصالة والغرفة المجاورة الى الشرفة البحرية :
ــ يابنت ياسماح .. افتحى الثلاجة .. واحضرى البطيخ ..
لم تبد أية استجابة لهذا الأمر ، فالتفتت المرأة العجوز الى زوجها وقالت له شاكية :
ــ تصرف مع هذه البنت ، يا أبا مدحت .
لم يجبها بشىء .. واستدار الى وقد ارتسمت على قسماته مسحة من المسكنة :
ــ تصور ، يابنى .. اذا وجهت لها لوما شتمتنى .
كررت المرأة العجوز النداء :
ــ يا سماح .. يا بنت ياسماح ..
سمعت هذه المرة صوت الثلاجة يفتح ثم يغلق بشدة .. رن فى أذنى صليل الشوكات والاطباق ..
مالت المرأة العجوز نحـــوى ومدت رقبتها القصيرة المتغضنة كسلحفاة تخرج رأسها من قوقعتها الحجرية ، وقالت :
ــ طوال النهار تلعب مع أولاد الجيران ..
قالت والدتى لجارتها القديمة بمحرم بك :

ـ يلزمكما خادمة كبيرة ..
ولولت المرأة العجوز :
ـ ربيت كثيرات وزوجتهن .. ولا أحد منهن يسأل فى الآن ؟
قالت أمى مستعيدة الايام الخوالى :
ـ تذكرين أم السعد ؟ اشتغلت عندكم أيام أن ضرب الطليان باب سدرة .
قالت العجوز :
ـ تزوجت عامل مياه فى طنطا .. يجلس طوال النهار أمام حنفية .. سمعت أنها أنجبت أولادا عديدين .. بنين وبنات .. تزوجوا وانجبوا أولادا .. حالتها ميسرة .. الا أنها ــ بعيدا عنك ــ أصيبت بالعمى ..
ـ هى ضريرة الآن ؟
ـ أجل ، ويجرها أحفادها أينما أرادت الذهاب .
قلت للرجل العجوز :
ـ مسكينة .. من الخدمة فى البيوت .. الى الخلفة .. الى العمى ..
قالت المراة العجوز كما لو لم تكن قد سمعت تعليقى :
ـ أجل ، يابنى .. كانت أياما حلوة .. تلك التى قضيناها جيرانا بالاسكندرية ..
قالت أمى مصدقة :
ـ أجل ، يا ست أم مدحت .. أتذكرين صينية القهوة كل صباح ؟ .. كنا نشربها معا .. عندك مرة .. وعندى مرة ..
دخلت البنت سماح .. أو ان شئنا الدقة .. « عقلة الصباع » تحمل صينية توسطتها صحفة ملآنة بقطع البطيخ .. ومن حولها أطباق خضراء من البلاستيك .. وشوكات وسكاكين . وكوبا ماء دلق جزء من محتوياتهما فابتلت الصينية ..
وفى نشاط وضعت عقلة الصباع الصينية على المنضدة الصغيرة فى وسط الردهة .. ووزعت الاطباق والشوك علينا .. وعلا صوت المرأة العجوز يدعونا الى تناول البطيخ المثلج ..
نظرت الى سماح .. فى ثوبها الازرق الداكن المهلهل وصندلها الرخيص .. استوقفتنى أصابع يديها التى احمرت من فرط دعك الحلل والاطباق .. وقسمات وجهها التى اختلطت فيها البراءة

بالخبث . بدت من الاجهاد أكبر من سنها بكثير .. بل خيل الى أنها تشيخ قبل الاوان ..

سدد اليها الرجل العجوز نظراته الجوفاء ، وقال لها :

ـ امتدت يدك ولا شك الى بعض قطع البطيخ ، يابنت ..

مسحت البنت الماكرة فمها بحـركة سريعة ، وجرت تختفى فى الشرفة .

تذكرت المرأة العجوز ماكانت تقوله قبل دخول سماح ، فواصلت تقول :

ـ والله ، كانت أياما جميلة ..

صدقت أمى على كلامها ، وقد امتلأ فمها بقطع البطيخ :

ـ الايام التى تمضى لا يأتى مثلها .

نادت المرأة العجوز على سماح كى تنظف بلاط الردهة من بذور البطيخ السوداء تحت قدميها .

جاءت البنت وركعت ، ولم تزل من البذور المتناثرة سوى القليل. جالت بعينيها السوداوين الضيقتين الرمداوين قليلا تتفرس فينـا جميعا .. ثم نظرت الى الرجل العجوز بشقاوة مكبوتة .

دفعتها سيدتها العجوز بيد وبسطت يدها الاخرى على ركبتها اليمنى :

ـ حاسبى ، يا ملعونة .. لا تلمسى ركبتى الموجوعة .. مكان الحقنة .

نهضت سماح ، حملت الصينية ، ومضت بخطا بطيئة متحدية .

نظرت الى ساعة معصمى .

قالت المرأة العجوز :

ـ الا تبقيا قليلا ؟

قلت :

ـ مشوارنا طويل ..

عندما نهضنا للانصراف ، لم تنس أمى أن تنصح الرجل العجوز ألا يهمل هذا الدمل الذى تربع على عظمة القدم .

أجابها بأنه فى انتظار ابنه يعود من السفر حتى يصحبه الى طبيب.

سألته :

ـ هل سيتأخر حمدى ؟

قال :

ـ زوجته الحامل تلازم الفراش عند أهلها .. وهو لا يستطيع

أن يتركها .. هى تتشبث به لان قيأها شديد .
قالت المرأة العجوز تودع أمى :
ــ من يدرى ان كنا سنلتقى !
صحبنا الرجل العجوز الى عتبة الباب ..
كاد توازنه يختل وقد داس على بذرة بطيخ .
قالت لى أمى هامسة ، ونحن ننزل الدرجات المهدمة :
ــ مسكين ، عامر أفندى ..
التفت اليها مستفسرا .
وفد صوت المرأة العجوز من فوق مناديا :
ــ سماح .. خذى بيدى .. ساندينى الى فراشى .. يابنت يا سماح ..
كررت المرأة العجوز طلبها ..
قالت أمى موضحة :
ــ لقد حان حينه .. أقول ربما حان ..
خفت أن يسمعنا الرجل العجــــوز . تطلعت الى حيث وقف بجلبابه الأبيض يحيط بقامته المهيبة اطار من الضوء الباهت ومن بعده العتمة .
أضافت أمى كقرار نهائى :
ــ ليس هذا الورم بالبساطة التى يتصورها ..
سمعت صوته يقول من بعيد :
ــ مع السلامة ..
ثم ابتلعنا بئر السلم .

الشـــال الأخضر



الشال الأخضر

كما لو كانت الالهة ايزيس قد باركته . تأثيره كالسحر . ما أن ارتدته حسنية حتى تغيرت نظرات فتيان القرية اليها . صارت خطاهم تتمهل عند اقترابهم من باب بيت الحـــاج عمران لعلهم يلمحونها ، وعندما تخرج تتابعها عيونهم . كم كبرت البنية وشبت .

منذ ان ارتدت ذلك الشال الجديد دب فى جسمها جمال من نوع خاص ، كدفء الشمس يبعث النضج فى زروع الحقل . برزت فى قسماتها لمحات من فتنة أنثوية ، لم تكن ملحوظة قبل أن يلف الشال وجهها الصبوح . ولعل الانعكاسات التى ألقاها لون الحرير الاخضر على قسمات ذلك الوجه القـــروى هى التى جعلت أنظار الشبان تنجذب الى الصبية ابنة بلدتهم .عندما رأوها متشحة بالشال الجديد تبينوا فجأة أى امرأة جميلة يمكن أن تكونها تلك الصبية التى لم يكونوا ينظرون اليها من قبل الا كطفلة صغيرة تجرى وتلقى الحصى فى الترعة ، أو تتسلق الجميزة قطة خفيفة الحركة ، أو تهز شجرة النبق لتتساقط على الارض المتربة حباتهـا الصفراء المستديرة .

كان أخضر اللون ، تلمع خيوطه الحـــريرية فى ثنايا شتى متى انعكست عليه الاضواء . طلبت من أبيها أن يأتيها به أخضر فى لون أوراق شجرة التوت التى تظلل صحن البيت وتمتد بعض أغصانها عبر السور لتفيض على الطـــريق الضيق أمام الدار ببعض الظل البنفسجى . ألحت على أبيهـا أن يأتيهـا بالشال فكان يعدها أن يحضره لها بعـــد موسم القطن . عنـــدما ينزل الى البندر لبيع المحصول سيشتريه لها ، باذن الله . كان أبوها عندما تلحف عليه الرجاء ، وقد رفعت اليه عينيها الوديعتين ، يربت على كتفها تارة ، وعلى خدها تارة أخرى . ويقول لها مطيبا خاطرها :

ــ حاضر .. بس كده .. وأنا عندى كم حسنية ؟

ــ عاوزة شال ، يا آبا .

ــ أنا أجيب لك شال حرير معتبر .. صنع المحلة ، يابنتى .

لكن الأب سرعان ما كان ينسى وعوده لابنته في غمرة مشاغله فى الغيط والزراعة ، والرى ، وجنى المحصول . مضت شهور ولم يعد الأمر سوى وعود لا ترى التنفيذ .

ـ طولى بالك . أنا وعدتك .

ـ أنا عاوزاه أخضر يا آبا .

ـ بس ، اسكتى بقى .. ده ما كانش وعد ده .

ـ زى لون الغيط تمام .

ـ حاضر .. أخضر .. زى ما انتى عاوزاه .

وجنى القطن ، وأخذ الحاج عمران يتردد على البندر لبعض شئون أرضه . وكانت حسنية تودع أباها فى الصباح مذكرة اياه بوعده ، وفى المساء تستقبله بالسؤال عن الشال الموعـــود . كانت مشغوليات الحاج عمران كثيرة ، ولكن طلب ابنته كان فى باله على الدوام أيضا . ولابد أن ينفذه لهـا بمجرد أن يفرغ من التفاهم على توريد القطن وقضاء بعض المشاوير التى تستلزمها الزراعة .

وفى مساء يوم الخميس نبح الكلب عند باب الدار مرحبا بعودة الحاج عمران من البندر . ومضت حسنية تستقبل أباها ، وفى عينيها لهفة .

ـ بتسألى عن الشال ؟ عاوزة تتزوقى وتتفندرى ، وانتى موش عارفه ايه اللى بيحصل فى البلد ؟ يابنت البلد كلها قايمة على رجل .. والبندر كله مقلوب .

ارتسمت الحيرة فى عينيها الغريرتين . واستطرد الأب يقول :

ـ الكل بيقول .. أرضنا لابد ترجع .

ولكن الحاج عمران ما لبث أن عاد يبتسم ابتسامته العطوف . وناول حسنية هديتها مطوية بعناية .

كادت تخطفه من بين يديه . وأسرعت تبسطه ثم تلفه حول رأسها وتلقى بطرفيه على كتفيها المستديرين . جرت الى الدولاب ، وقـد لمعت عيناها فرحا ، وامتلأت حركاتها خيلاء ، وفى سورة انفعالها لم تعبأ بأمها التى مضت تنهرها قائلة :

ـ يابنت ، ماتبصيش لنفسك فى المراية بالليل .. أهل زمان قالوا كده .

لم تقو حسنية فى تلك الليلة على النوم مبكرا كعادتها .. كانت أناملها تمتد بين الحين والحين وتتحسس الشال الأملس المسجى مطويا على وسادتها . كان ملمسه يبعث فى أعماقها احساسا بأن

تحولا ما على وشك أن يغير حياتها ، شيئا من مشاعر عذراء توشك أن تدخل دنيا جديدة . فيصعد الدم الساخن الى رأسها ، فتتورد وجنتاها فى الظلام . وعندما غلبها النوم فى النهاية كانت قد استقرت على شفتيها ابتسامة . وراحت فى حلم . رأت نفسها تلبس أكاليلا من ورق التوت ، وتجوس فى حقل قمح فسيح كثيف المحصول ، تحت سماء رحبة صافية الزرقة . كان المشهد كله صامتا مهيبا متراميا . والى جوارها شاب يرافقها التجوال . انحنى ، قطف سنبلة ذهبية ، وأعطاها لها .

عندما استيقظت حسنية فى صباح اليوم التالى كان أول مافعلته ، بعد أن احتضنت شالها فى حنان ، ان مضت الى أمها تستعطفها ، وتلحف عليها الرجاء .

ـ أمه ، عاوزه حبة كحل .

رفعت أمها حاجبيها دهشة حتى كادا يلامسان حافة منديلها الاسود المعصوب على جبينها :

ـ كحل ، يابنتى ؟

ردت عليها حسنية بصوت فيه شيء من ارتباك من يطلب طلبا لأول مرة .

ـ أصل .. أصل .. حاخرج بالشال الجديد ، يا أمه ، النهارده !

وازاء الحاح الابنة الحبيبة المدللة لم يكن ثمة بد من أن تستجيب الأم .

حقا ، كم كان ذلك الشال الاخضر مسحورا ، ومباركا من ربة الارباب ايزيس ! وكما لم يغب عن الأم التغير الذى طرأ على ابنتها لم يغب أيضا عن جاراتها ، فكانت الحاجة كريمة تتابع حسنية بنظراتها وهى خارجة داخلة ، وتلتفت الى أم حسنية وقد علت شفتيها ابتسامة عطوف وتقول مداعبة :

ـ ما شاء الله ! بنتك ، اسم النبى حارسها ، كبرت . حق العرسان يتقلوا جيوبهم .

وتبتسم أم حسنية فى سرور واعتزاز ، وترد بالعبارة التقليدية التى تقولها الامهات عن بناتهن عندما يبلغن سن الزواج :

ـ صغيرة . مستعجلة على ايه .

وحتى حسنية ذاتها لم تكن تعرف ما الذى استبد بعواطفها ، وجعلها متلهفة على شيء لا تدرك كنهه .

ثلاثة من فتيان البلدة على الاخص تعلقوا بذلك الشال الاخضر وبصاحبته التى لفتت الانظار الى حسنها الذى لم يكن باديا من قبل تحت مظهرها الطفولى . الاول هو سالم ابن الحقل . بيديه الخشنتين يتعهد قراريط أبيه ، وفى الاصيل يخلو الى النادى الذى صنعه من البوص النابت على شط الترعة ، ينفخ فيه من أعماقه أنغاما بسيطة معبرة عن خلجاته الدفينة . وقد كان قادرا أن ينطق نايه كل مايجيش فى نفسه من أحاسيس . فى الامسيات والجو صحو ، يسير بقامته الفارعة النحيلة على جسر الترعة وفى بعض الدروب عاكفا على عزفه ، وقد انتفخ شدقاه ، ومضى صدره ، الذى رسم عليه وشم أخضر يمثل أسدا يمسك سيفا ، يعلو ويهبط تبعا لما يفيض من نايه . وقد اصطبغت أنغامه المرتجلة فى الآونة الاخيرة — وعلى وجه التحديد منذ أن وقعت عيناه على ذات الشال الأخضر — برنة أكثر طلاوة وشجوا . لم تكن الصبية غريبة عنه على أى حال ، فقد لعبا معا فى طفولتهما فى شونة البنك الزراعى المجاور لبيتها والتى كان خاله يعمل بها خفيرا . رقدا على بالات القطن ، وتزحلقا عليها ، ضاحكين ضحكا هنيا رائقا ، ولكنه عندما كبر وانشغل بأعمال الحقل فى معاونة أبيه الذى بدأ يكبر وتعتل صحته ، غاب عنها وغابت عن ذهنه ، الى ان ردها اليه وبشدة ذلك الشال الاخضر الذى أبرز مفاتن نضجها . سمع كل ذلك فى ألحانه التى تتكلم لغة القلب القروى الصريح . داخلت نغماته لهفة نداء وارتجافه سؤال . وكانت تفد نغماته الى أذنى الفتاة عندما يمر أمام دارها فيزيد من تمهله وان تظاهر بعدم القصد . ويفهم قلبها الصبى النداء المبهم غير القادر على الافصاح . كانت تتذوق هذه النغمات التى تقطر من نبع عذب ، فى غبش المساء باعثة وهى تبتعد وعدا بلقاء ووفاء .

لم يكن سالم هو الوحيد من فتيان البلدة الذى تعلق بالشال الاخضر ، فقد امتلأ بصاحبته ما أن تنبه اليها قلب شاب آخر هو فتحى ، أو الأستاذ كما كانوا يسمونه فى البلدة . كان يلبس قميصا وبنطلونا وأحيانا حلة رمادية وربطة عنق حمراء كبيرة . يحمل فى غدوه الى المدرسة الابتدائية ورواحه منها حقيبة بنية مليئة بكراسات الاولاد الذين يعلمهم اللغة العربية والحساب وبعض مواد أخرى . ومن وراء زجاج نظارته التى تكسبه وقارا لا يتفق وسنه كانت عيناه تلمعان برضاء وتمن كلما رأى الفتاة تخطر أمام سور المدرسة الواقعة قريبا من بيتها وغير بعيد عن الترعة . وقد أبدى الاستاذ

الشاب استعداده ــ عن طريق رسول يعرف أباها ــ أن يعطى أخاها الصغير دروسا اضافية للتقوية عن طيب خاطر . وان كان قد شاع عنه فى البلدة انه يتأبى على طالبى هذه الدروس ، فهو يعتبر نفسه مثقفا الأجدر به أن يكرس وقته لقراءة دواوين الشعر التى يحبهــا وكتابة بعض القصائد الخاصة به أيضا . وعلى الرغم من أن البنت ما زالت غريرة ولا تعى الكثير من أمور الدنيا وأفاعيل البشر ، الا ان القلب الصبى استطاع أن يخمن ان هذا العرض بتقديم الدروس لم يكن سوى نداء موجه اليها ، وانها هى المقصودة بهذه اللفتة الكريمة من الاستاذ الشاب الذى فاجأته ذات مرة ينظر اليها طويلا نظرات ثابتة من وراء نظارته ، واقفا عند نافذة الفصل وهى ذاهبة الى قضاء بعض حوائج البيت التى أكثرت من الخروج لقضائها منذ أن اتشحت بالشال الاخضر ، بل انها لاحظت أنه يظل يراقب مرورها فى عودتهــا أيضا ، فاذا بدت طلعتها عند ناصية الشارع أسرع الى النافذة وظل متشبثا بمكانه الى أن تغيب عن بصره ، تاركا التليمذ الذى يقرأ ماضيا فى قراءته لا يعبأ بما تردي فيه لسانه من أخطاء . وعندئذ كانت حسنية تجذب الشال الاخضر على وجهها ، فلا تبدو الا عيناها اللتان زادهما الكحل الاسود اتساعا وأنوثة .

أما ثالث المتيمين بصاحبة الشال الاخضر ، فقد كان فتى ذا بأس . انه جلال ابن العمدة . شاب مفتول العضل ، أثيث الرقبة ، صدره كثيف الشعر ، خشن الملامح وان لم تخل من وسامةالرجولة. سريع الالتجاء الى عصاة غليظة يتباهى بحملها ، ولكن بين ضلوعه على أى حال قلب طفل ، يهوى المشاكسة دون أن يضمر شرا لأحد .

كان مظهر انفعاله بالشال الاخضر أن تحرش بصاحبته ، كانت هذه طريقته فىالتعبير . اعترض طريق حسنية . أراد أن يقول لها كلاما كثيرا ، ولكنه لم يجد من هذه الكلمات عندما واجهها سوى بضع همهمات .

جذب الشال ، فانحسر قليلا عن جبينها .

قال :

ــ اديهولى .

انتزعت طرفه من يده وتراجعت غاضبة ، فلم يجرؤ أحد من قبل على مثل ما جرؤ عليه .

ــ غصب عنك حاخده .

غلت دماؤها .. صرخت تقول :

ــ لو كنت تستحقه !

جرت الى دارها . قهقهته الخشنة تلاحق أذنيها . ولكن دقات قلبها لم تكن كلها غضبا خالصا . ففى قرارة نفسها احساس بأن الامر لا يخلو من مداعبة ، وان وراء النظرات الجهمة عاطفة تتأجج .

***

لم يمنع فتحى من اعطاء دروس للأخ الاصفر ، وجلالا من معاودة التحرش بحسنية سوى اندلاع حرب تحرير الارض . وما عادت أنغام الناى أيضا تسمع فى أرجاء البلدة ، فقد أضحى سالم لا يقوم بنزهاته .

تركز اهتمام الناس جميعا على أنباء المعارك . عيونهم تنبش صفحات الجرائد ، وآذانهم مسمرة الى أجهزة الرايو ، يتابعون البيانات بلهفة ، ويهللون فرحين بأخبار الانتصارات المتوالية على العدو وتكبيده الخسائر الفادحة فى الارواح والعتاد ، ووقوع أفراده فى الأسر .

يقول صوت فى حماس :

ــ الحرب كانت ضرورية !

ويعقب آخر بحماس لا يقل عنه :

ــ نمحو بها الهزيمة .

وكان فى مقدمة من دعى من شبان البلدة الى القتال المتيمون الثلاثة بالشال الاخضر . وعلا صوت المعركة وساد ، ويوما بعد يوم كانت البلدة ــ تلبية لنداءات ادارة التجنيد ــ تخلو من فتيانها .

ــ الحرب موش حاتطول .. شعوب العالم كلها معانا .

ويناقضهم آخرون :

ــ الحرب نارها تشعلل .. الشر نابه ازرق .. وعدوك مافيه أشر منه .

ليفعل الله اذن مافيه الخير ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

خلعت حسنية شالها الاخضر . طوته بعناية وأودعته الدولاب . واذ ترتطم به أناملها عرضا وهى تخرج شيئا من الدولاب لا تقاوم الرغبة فى أن تتحسسه وقد شرد بالها الى بعيد. فلو سئلت من أجل من من الثلاثة تود أن ترتديه لما استطاعت أن تجيب .

***

انهمرت الامطار طوال الليل ، وفى الصباح ظلت الرطوبة تتسلل

الى العظام ، والهواء البارد يجلد الوجوه والابدان بسياطه . ومع ذلك فقد خرج أهل البلدة مبكرين الى محطة السكة الحديد القائمة على بعد ربع ساعة غربا . بين لحظة وأخرى ، وفى غير موعد محدد، سوف يصل القطار حاملا جنودا عائدين من الجبهة . وقف أهل البلدة والقرى المجاورة صامتين مترقبين . ومع أبيها جاءت حسنية الى المحطة لاستقبال خالها الاصفر . معارك ضارية سالت فيها دماء زكية غزيرة لتغسل عار الأم الدامية . من يدرى ، كم من جريح سيجلب القطار ، وكم من الشهداء سقطوا على ساحات المعارك .

بدا القطار من بعيد . مضى يقترب وئيدا مثقلا بالركاب . الحواس مشحوذة ، والانفاس مكتومة ، والناس على المحطة يممت بكل جوارحها صوب اتجاه واحد ، مشدودين بهدف واحد ، والقلوب الواجفة تدعو بدعاء واحد صامت تفجر فى عيون البعض دموعا . من نوافذ القطار اشرأبت أعناق ودوت من الحناجر القوية صيحة « الله أكبر ، والعزة لمصر » وسرت فى جموع المنتظرين الصيحة ذاتها ، والقطار يهم بالوقوف . وتكهرب الجو المخيم على المحطة ، وتعالت نداءات اختلطت فيها أسماء تشابهت أحيانا . كل ينادى على أب أو ابن أو أخ أو قريب أو صديق من الجند العائدين .

قفز من شبابيك القطار الى الرصيف فتيان ضاحكون مهللون . مغاوير انتشوا برحيق كلمات من القلب مرحبة .. أمهات وزوجات تحول وجومهن الى دموع اختلطت بضحكات الفرح .

وسط هذا الجمع وقفت حسنية أيضا متدثرة بشالها ، تتشبث به أصابعها وتضمه الى صدرها ، حيث يدق قلبها كما لم يدق من قبل قط . تجول عيناها فى محجريهما بسرعة تبحثان وتنقبان .. ها هو فتحى يعود . سمعت الناظر يناديه مرحبا ، ثم هجم عليه رفاقه المدرسون يعانقونه ويمطرونه بالقبلات . ومضوا به يشقون الزحام . استدار ، ونظر اليها من بعيد . ولكن الرفاق المتشوقين اليه جرفوه معهم خارجين من أسوار المحطة .

وما زالت عينا حسنية تفتش . لمحت من باب العربة الثانية سالما يشق طريقه نازلا .. تفحصته جيدا . وقف على سلم القطار هنيهة، وتلفت يمنة ويسرة . دق قلبها . لابد أنه يبحث عنها . تضاعفت فرحتها ، فقد تبيّنت انه بدوره لم يصبه رصاص الاعداء بسوء . وما أن خطا أولى خطواته على الرصيف حتى ابتلعه الزحام فغاب عن بصرها سريعا .

بعد قليل ، خف النازلون من القطار ، ومضى عددهم يتضاءل . لم يظهر الخـــال ، فاستفسر الحاج عمران عما اذا كان كل العائدين يقلهم هذا القطار ، فأفاد معاون المحطة بأن هناك قطارا آخر يصـــل فى الثالثة .

تنقلت نظرات حسنية بعصبية بين نوافذ القطار وأبواب عرباته . النازلون يخطون خارجا الى الرصيف ببطء وصعوبة . يرحب بهم من هم فى انتظارهم ويمضون بهم فى أناة ورفق . أظلم المكان فى عينى حسنية . الاشجار عند السور بدت جرداء فارعة تطعن ، مع أعمدة النور والتليفون ، السحب التى بدت حبلى بأمطار الشتاء . وثقلت جلبة المكان على سمعها .. انسحب المشهد كله الى بعيد .. بعيد .. وكأنها خرجت من تجويفه .. وتناهى الى سمعها صفير قطار يمضى مبتعدا عند الأفق ، وصوت أبيهـــا يعاود السؤال عن المواعيد القادمة .. خـــلا المكان الا منهــــــا .. خواء كل ما حولهـــا .. المكان صحراء صفراء شاسعة مستعرة الاوار . الانفجـــارات تتـــوالى .. وطلقات المدافع تتدافع فيتلقاها صدر فتى كثيف الشعر ، وهو يضحك ، ويضحك وصائحا يقول « غصب عنك .. حاخده منك » امتلأ الافق بقطار طويل عرباته من دبابات متراصـــــة ومتربصـــة .. دخان كثيف .. كثيف .. ولكن باصرار مضت نظراتها تتشبث بأبواب العربات .. مستحيل .. مستحيل .. بداخلها أن يكون هذا نهاية كل شىء .. هذا الدخان الكثيف الاسود .. مستحيل .. بداخلها هذا الصوت يدوى باصرار .. سيتبدد الدخان .. وفجأة تبدد .. بدا المشهد كله صحوا صافيا بللوريا خاليا من كل ذرة تراب .. اندفع المكان كله نحوها .. أصبحت من جديد جزءا من المشهد، وهو جزء منها .. اتسعت حدقتاها لترشف كل التفاصيل .. عند باب العربة الرابعة وقف ، يتلمس موقع قدمه على رصيف المحطة .. عكاز خشبى تحت ابطه اليسرى .. دفعه بيده .. الى الرصيف المنخفض .. مال بعكازه قليلا الى تحت ، واتكأ عليه .. ثم مد ساقه اليمنى الى أرض الرصيف ، وسار خطوتين .. قبل أن يبلغ اليه أبوه العمدة وسائر الاقارب ، كانت حسنية قد شقت طريقها خلال الجموع الباقية ووصلت اليه .

لم تعرف ماذا تقول له . أتقول « حمد الله على السلامة » ؟ نظرت الى العكاز الذى ينبىء بساق مفقودة . ثم اذا بذراعه اليمنى أيضا ملفلفة بالضمادات البيضاء مستقرة على عصابة مدلاة من كتفه . ذات

القسمات المشاكسة الطيبة ، لكن الهزال باد والشحوب فى الوجنتين شديد . هبت على المحطة ريح شتائية . خلعت حسنية شالها الاخضر وبسرعة بسطته على كتفى الجريح . تهدلت جدائلهـــا السوداء متماوجة خلف ظهرها .

خفضت نظراتها . وساروا جميعا الى باب المحطة صامتين .

بعد كل هذه السنين



بعد كل هذه السنين

الغرفة خالية خشنة ممتدة ، وفى أعماقها جلست الفلاحة العجوز صاحبة البيت ، وجهها مغطى بأخاديد غائرة ، شقها على جبينها ووجنتيها وفوق شفتها العليا وذقنها ، محراث الزمن والاحزان .

كانت تتحدث بصوت هادىء ، وعبارة رصينة . وفى عينيها ، حيث تلبدت غيوم ، يلمح من وقت لآخر قليل من الشمس .

قررت أن تبيع بيتها هذا الذى عاشت فيه أحلى ساعات عمرها وأشقها أيضا . اليه جاءت مع رجلها اثر زواجهما . نقل الى هذه البلدة الصغيرة خفيرا للمزلقان القريب . عاشت أياما صعبة ، لكنها مستورة . لم يكن بالبلدة الى عهد قريب مياه صالحة للشرب ولا كهرباء ، ولا أى شىء . وبالليالى ــ وكانت حالكة الظلمة الى حد غريب ــ يفد اليها من ناحية الجبل عواء الذئاب يمزق الصمت الرابض مثل هرم جرانيتى الحجر ، بل كثيرا ما سمعت ، وهى وحيدة بالدار ، مخالب الذئب تخمش باب الغرفة الخشبى غير المحكم ، وأنفاس الوحش اللاهثة تسعى الى الدخول . وفى هذا البيت أنجبت بعد اثنتى عشرة سنة من الزواج ابنها الوحيد « زين » وربته ، وكبر بينما مات أبوه . لم تشعر الى جوار صغيرها بالوحشة ، بل كان رفيق حياة ، الى أن ذهب الى الحرب ، عام ١٩٦٧ ، ولم يعد . لم تره . قالوا لها مات هناك . لم تصدق . شىء بداخلها مضى متمردا على ما سمعته أذناها . كان يخيل اليها أنه ينقر الشباك بأصابعه كما كان يفعل . تجرى اليه تفتحه ، فلا تجد أمامها سوى سماء فسيحة وبعض السحب . أو يخيل اليها أنه سوف يدق الباب ويدخل . تذهب وتطل . ليس هناك غير الساقية المهجورة عند شجرة الجميز الابدية . وأحيانا بالليالى يخيل اليها أنه فتح الباب ودخل وجلس قبالتها . ولكن دائما حضنها منه خال ، ويداها تمسكان بالهواء .

تاقت كثيرا أن تذهب اليه ، الى حيث رحل ، واستشهد . أن تنكفىء على الارض التى ارتوت بدمه وتقبلها ، ولكن كانوا يقولون لها العبور الى هناك مستحيل .

قال لها الرجل الذى جاء ليشترى البيت بعد أن عاينه :

ــ البيت يحتاج الى بعض الترميمات .

هزت رأسها وأجابت مصوبة نظراتها الى بعيد :

ــ قالوا يمكنك أن تطلبى من مجلس القرية سلفة لاصلاح السقف والحيطان . وقالوا لن يتأخر المجلس فى أن يقرض والدة شهيد ، لكنى رفضت . كنت أود أن أبقى كل شىء على حاله الى أن يأتى ابنى .

صمتت . وأطرقت .

ثم رفعت عينيها الى المشترى وقالت :

ــ والآن أريد فحسب أن أبيع البيت على حاله ، وبثمنه سأذهب الى حيث يوجد ابنى . وعلى الأرض التى ضمته اليها سأقضى بقية عمرى . ولم يبق لى من الأيام الكثير على أى حال . الحكومة تستعد لتعمير سيناء . عندما ستفتح الطرق ســـأكون من أوائل الراحلين الى هناك . وعندما المس بيدى الأرض التى دفن فيها ، فكأننى قد أخذته بين ذراعى . وعندما انكفىء عليها وأقبلها وأرويها بدموعى ، فكأننى قبلت ابنى .

تنهدت الفلاحة العجوز :

ــ الحمد لله . عادت الينا الارض التى دفع ابنى ثمنهـــا . ألا نستحقها الآن ؟ سأموت قريرة العين ، لأننى فى الارض التى مات عليها ابنى ، الى جواره ، سأدفن . كفانى العذاب الذى قاسيته ستة سنوات ، ست سنوات ، بعيدة عنه .

أمسية الهازلين



أمسية الهازلين

جلسنا في قاعة الفندق الكبير . أناقة في الأثاث ، اضاءة ، مريحة ، موسيقى خفيفة موحية . كل شيء يفيض بعطر الحياة .. لكن مع خطواتى الاولى ونحن ندخل من الباب الزجاجى الى ردهة الفندق الكبير ، منتقلا من الظلام المفروض على الشوارع الى الاضاءة البهيجة داخل المبنى ، أحسست بأننى أقبل على ما ليس لى حق فيه ، على عمل غير مشروع ، اذا أمكن أن نقول ذلك بلغتنا ، نحن أهل القانون . لماذا هذا الاحساس ؟ قال لى صديقى سرحان ، وهو يسير معى على البساط الاحمر « جو غريب » صارحته بما فى داخلى قال « مجرد جلسة نحتسى فيها بعض الجعة مع أصدقاء » كان ذهنى منصرفا الى الذين يربضون بالصحراء فى البرد وفى الظلمة .. ينتظرون متأهبين على الدوام .

جلسنا على أرائك مريحة ، تغوص فيها أردافنا ، وتزداد ثقتنا بالنفس ، فنضع الساق فوق الساق . تحدث الاستاذ الجامعى الدكتور منصف عزمى عن أورويل . وأشارت كاتبة السيناريو كريمة حسنى ضاحكة الى « الاخ الكبير الذى يراقبنا » وهــذه ـ على ما أوضحت ـ فقــرة من احدى روايات ذلك الكاتب الانجليزى . وانتقل الحديث الى روايات أخرى .. «الساعة الخامسة والعشرون» هل قرأتموها ؟ « فظيعة » . وقال الدكتور منصف ان برتراند راسل كتب عن أورويل مقــالة هامة . وسأل « هل قرأتم قصص برتراند راسل ؟ » وقبل أن يتلقى اجابة قال « الشيطان فى الضواحى ، وله أيضا مجموعة أخرى » .

قال نظيف السمالوطى ان الساعة التى تحدث عنها أورويل قــد جاءت . ثم بدأ فى اظهار السخط واطلاق اللعنات على مجتمع ما عاد يظن أنه سيفعل شيئا « فى المؤسسة الجميع لا يعملون .. يجلسون الى المكاتب حتى الرابعة بلا عمل . ومع ذلك يعطون أجرا عن أعمال اضافية » أردف يقول « عرض بخمسمائة دولار فى الشهر .. تصوروا

ألف جنيه فى الشهر .. قدم لى للعمل مع احدى الشركات الايطالية فى ليبيا لمدة سنتين .. وسفريات منتظمة الى أوروبا .. مع ذلك رفضت » . قالت كريمة « أهم بحاجة الى زراعيين الى هذا الحد ، هناك ؟ » مضى السمالوطى يقول : « تصوروا ؟ أنا حشرة لا تستطيع أن تخرج من صفيحة القمامة .. » لامته كريمة لأنه ضيع مثل هـذا العرض السخى . وسألته لماذا ؟ قال انه ألف الحياة هنا ، ولا يستطيع أن يستغنى عنها . ثم قال انه يقرأ الآن كتب التاريخ ويتساءل هل الشجاعة وحدها هى التى تكسب الحروب ؟ وينفى ذلك بشدة .. فقد حارب الجيش اليابانى فى الحرب العالمية الثانية ببسالة شديدة وصلت الى الانتحارية ، ومع ذلك خسرت اليابان الحرب . اذن ، ماذا ؟ ثم استعاد ذكرياته عن حرب يونية .. لم يكن قد بقى شىء الا الانسحاب .. لماذا ؟ الضباط يرسلون لدراسة أدق الاسرار العسكرية ، ثم يعودون ليعينوا فى وظائف مدنية مغرية بالشركات والمؤسسات . قلت « كان الانسحاب عن سيناء عام ١٩٦٧ ضرورة .. لولاه لقضى على الجيش » .. وأضاف يونس حمدى قائلا « رب ضارة نافعة » .

أقبل الجرسون .. اكتفيت بقدح من شراب الليمون،وحذا حذوى الدكتور عزمى ، فهو يعانى من متاعب بالمصران الغليظ . أما المهندس الزراعى ـ ويبدو أنه هو الداعى هذه الليلة ـ فقد طلب لنفسه ولسائر الصحبة « جعة » .

قالت كريمة وهى تنفض رماد السيجارة من على ثوبها القطيفى الازرق : « تصوروا قلة الأدب .. الشغالة عندى .. رأت البانشو الذى وصلنى من اسبانيا .. فسألتنى أن تفصل مثله لابنتها نسمة .. تصوروا ـ كيف بلغت بها الوقاحة ـ أن تقلد الشغالة ملابس سيدتها . ماذا بقى اذن ؟ ماذا بقى ؟! » سأل يونس مستفسرا « وماذا فى ذلك ؟ » اهتزت أهداب كريمة المزججة بالكحل الثقيل . ورمقته بنظرة استنكار .. ثم أشعلت سيجارة نفثت دخانها فى عصبية .

راح بالى الى أختى الحاجة وفية .. جالسة على الاريكة الاسيوطى ذات المسندين ناصعى البياض .. تقول لى وقد زاد اتساع حدقتاها هذه الايام « أراه ، ياعدنان كل ليلة .. يجلس فى الفسحة .. أنهض من فراشى .. أقول له انت جئت ياطلعت .. يبتسم لى .. أقول له تعال يابنى ، أرقد قليلا .. يشير الى بيده ، ويقول أنا مستريح .. ارقدى أنت ، يا أمى .. المهم أن تكونى أنت مستريحة .. أنا

بخير يا أماه » يرتدى ملابسه الصفراء ، لكنه يلبس قلنسوة خضراء .. ماذا يعنى هذا ؟ اطمئنها .. تسأل « ترى ، هل ساراه ثانية .. انى عارفه .. قلبى يحس .. انه لم يمت » .

احضر الجرسون الانيق « الجعة » والاكواب البللورية .. قال نظيف السمالوطى انه لا يستطيع أن يستغنى عن هذه الجعة .. انها مشروب لكل المناسبات .. صيفا وشتاء .. صحيح أنه يعرف أنهـا ليست أفضل المشروبات .. ولكن حبه للأفضل لا يمنعه من أن يقبل على الأسوأ ، فانه بدون الأسوأ لا يعرف الافضل .

لست أفهم لماذا انتقل الحديث الى الفرعونيات .. والى التوحيد .. والى الاله رع .. وأوضح يونس أن فرويد قد ذكر فى كتابه عن موسى انه كان مصريا .. وان حكاية السلة التى وضع فيها مختلقة . سألناه بدهشة « مختلقة ؟! » مضى فى حديثه موضحا ، وقد سره انه استرعى منا الانتباه . « أجل مضافة فيما بعد » وألقى نظيف السمالوطى بقنبلته الثقافية .. أن الدكتور حسنين له كتاب بعنـوان « التوراة الهيروغليفية » يؤكد فيها ان التوراة نص فرعونى .. طلبنا جميعا أن نقرأ هذا الكتاب .. ولا أعتقد أن أحـدا منا سـيقرؤه .. ولكن نظيف على أى حال وعد بأن يعيره لنا .. ولكنه أضاف تحفظا بأنه يعانى هذه الأيام من عدم عودة مايخرج من مكتبته .. حتى انه بدأ يفكر فى أن يفعل المثل بما يستعيره .. ان لم يكن انتقاما مما يحدث له ، فعلى الاقل حتى يعيد التوازن الى ما فقد من مكتبته .. عاد ذهنى الى ابن أختى المجند الذى لم تصلنا أخبار عنه . قيـل لنا انه لابد ممن عبروا القناة .. وقيل لنا انه لابد ممن بقوا فى مدينة السويس .. وقيل لنا أيضا ان أولئك الذين عبروا سيناء أفضـل حالا .

دخل رجل وخط الشيب فوديه لكنه مفتول العضل رفيع الشارب .. يلبس فى هذا الشتاء قميصا صيفيا زاهى اللون . تتفجر الدماء من وجنتيه .. اسكتلندى ربما .. أو نرويجى .. تصحبه امرأة ذات عينين واسعتين وأهداب ثقيلة .. يكاد جسدها يتفجر داخل ثوبها الضيق الذى لا يخفى على أى حال من ذلك الجسد الا القليل . تدخن سيجارة فى مبسم ذهبى .. وتمسك فى حضنها كلبا ذا خصلات سوداء تغطى عينيه ..

مال على صديقى الصحفى . وقال بصـوت خفيض حتى لا يصل بالأخص الى سمع كريمة حسنى :

ــ راحت علينا .. نحن مساكين .. زوجاتنا عندما يكبرن يركبهن دلع ماسخ .. ويطالبننا بما لا قبل لنا به .

ازداد همسه ، بينما غلت فى عينيه انفعالات عديدة .

ــ الساكن الجديد بالشقة تحتنا .. لا نوم فى شقته قبل الرابعة صباحا .. رقص ونط ثم ينصرف الضيوف ويظل النور الاحمر فى غرفة نومه حتى الفجر .. من أين يأتى بكل هذه الحيوية ؟

تنهد ورشف من جعته رشفة طويلة واستطرد يقول :

ــ والله راحت علينا نحن .. لا شىء عاد ينفع ، يا شيخ !

عدنا نندمج فى حديث الشلة عن الأدب .

قضم نظيف السمالوطى قطعة من الخيار الأخضر المثلج المرصوص فى الطبق المستطيل .. وعاد يقذف بلعناته الساخطة .. وبصوت عال انسجمت نبراته مع الأنغام الحالمة التى تفد من البيانو والكمان . وقال انه لا يعتقد الا فى أن المشكلة التى نعانيها هى الجوع .. ومضى يقضم قطع البطاطس التشيبس .. طلب جعة أخرى .. ومضى يأكل ويتكلم بسرعة .. حديثه ملىء بالثقافة والتعليقات الذكية .. وانتقل الى برنارد شو « هل قرأتم البربرية تبحث عن الله ؟ » .. ومضى يحدثنا عن شو .. وعلق الدكتور عزمى قائلا « رسل قال عنه انه كان رجل نكتة فحسب .. وأنه فى أخريات أيامه عاد الى الايمان » .

بعد برهة من الصمت انشغلت فيها الاسنان بمضغ بعض محتويات أطباق المزة ، عاد الباشمهندس يقول « كانت فى حياتى مشاكتان : الاولى مساكة المفاتيح والثانية جلدة الساعة .. أما جلدة الساعة فقد حللتها بسوار فضى» ورفع ذراعه اليسرى ليرينا معصمه « أما مساكة المفاتيح ، فانظروا ها هو الحل » وأرانا سلسلة من الصنف القديم يثبت طرفها الآخر فى زرار بالصديرة .

قلت ضاحكا « أما أنا فان مساكة المفاتيح حللتها بالطريقة الآتية .. ابنى صنع لى مساكة من الاسكوبيدو أى من خيوط البلاستيك الملون .. علما بأن هذه ليست مشكلتى الوحيدة .. »

نظر يونس الى مساكة مفاتيحى ــ وقد كان أقلنا حديثا تلك الليلة .. قال « ابنى أنا ليس لديه الوقت للالتفات الى مشاكلى .. انه يسبب لى مشاكل .. هذا كل مايفعله .. »

جاء الجرسون يطلب الحساب .. تغلق القاعة عند الساعة الثانية عشرة .. هكذا قال .. تنهد نظيف السمالوطى وحمد الله ، فقد كان بالأمس فى نادى السيارات وفى الحادية عشرة تماما اطفأوا الانوار وطلبوا

من الحاضرين الانصراف . ثم مضى يحدثنا عن ارتفاع الاسعار .. يوم السبت الماضى رأى زجاجة من الويسكى عند البقال سأله عن الثمن فقال له سبعة جنيهات . تصوروا .. هذا غير معقول .. غير معقول على الاطلاق أن يصل الغلاء الى هذا الحد .. ولكنه هو له طريقته الخاصة فى الحصول على مثل هذه الاشياء بأسعار أرخص .. هذه الزجاجات تأتى مهربة مع مسافرين فى المطار .. وكلما أتيحت الفرصة يشترى من هؤلاء ما يلزمه .. بأرخص الاثمان .. فلا يمكن أن يسمح لأحد أن يستغله أو يبتز أمواله .. ثم تطرق يونس حمدى الى الكلام عن أزمة الورق .. لا ورق فى أى مكان .. وأريد أن أطبع كتبا .. كتبا كثيرة .. كثيرة .. ولابد أن أفعل شيئا .. سأشترى ورقا وأخزنه .. ضحك الدكتور عزمى .. وقال انه عام ٥٤ طبع كتابا على نفقته .. ولم يبع منه الا عشرين نسخة والباقى مرصوص عنده الى الآن فى البيت ..

ونهضنا للانصراف .. فالدكتور عزمى .. عليه أن يجهز محاضراته فى النقد الموضوعى ، ويونس لا يستطيع أن يتأخر عن قطار الضواحى، والا بات على رصيف المحطـــــة لأنه يخشى أن يستقل تاكسى فى الظـلام .

سألنى صديقى ونحن ســـائرين الى الباب على البساط الاحمر الذى سرنا عليه داخلين : « أى يوم من الايام غدا ؟ » ثم أردف قبل أن أجيب « على أن أكتب مقالتى .. عمل روتينى يستنزف آخر نفس من أنفاسى .. كل أسبوع » .

عاد يسأل :

ــ وكم من الشهر اليوم ؟

ــ الخامس عشر من أكتوبر .

ــ شهر مشحون .. هذه السنة ستكون مشحونة . أقصد مابقى من أيامها .

كنت أفكر فى الاوراق التى يجب أن أعـــدها لقضية التزوير والاختلاس التى سأترافع فيها أمام محكمة الزقازيق بعد غد .

أحكم سرحان اقفال سترته على صدره وقال : « يصيبنى البرد والسعال وعندئذ أحرم من متعتى الوحيدة » وسرعان ما وجـدنا أنفسنا ندفع الباب الزجاجى الكبير .. ونخرج الى الظلمة الدامسة المفروضة على الشوارع من جديد .

الميتر توفيق خوخة



الميتر توفيق خوخة

لا يركب الأوتوبيس أبدا .. عندما يرى محطة اكتظت بالمنتظرين يبدى ازدراءه وتأففه ، وينطق كلمته المألوفة « هوريبل » وهى تعنى بالفرنسية أن الامر مريع . وعندما ينسى تمسكه باللغة الافرنجية ، ويعبر عن ذات احساسه بالعربية ، يقذف من شفتيه كلمة « فزيع » ، وصحتها « فظيع » ، لكن الفرق بين الحرفين أمر ليس له مبرر فى أبجديته التى اختلطت بهـــا العربية التى تشربها فى مدارس شبرا والفرنسية التى التقطها فى سنوات بعثته .

ولئن كان الميتر توفيق خوخة يترفع عن الاقتراب من محطـــة أتوبيس ويأنف ، فلا يرجع ذلك الى هذه الايام فحسب التى أصبح فيها انتظار الاوتوبيس عناء ومضيعة للوقت ، بحيث قد يقبل عدم التعويل عليه كوسيلة للنقل ، بل كان ذلك هو حال الميتر خوخة على الدوام ، فلم يكن يعترف بمبدأ المساواة الطبيعية ، وكيف يتصور ان بالامكان أن يكون هو على مستوى الاخرين من عباد الله . وعندما أثار ترفعه المتكلف ثائرة احدى بنات البلد ذات مرة فصاحت به بصوت لولبى « ليه ، هو احنا كلنا موش ولاد تسعة ؟ » قال لهـــا بلهجة حازمة « لكن تسعة عن تسعة تفرق ، يا مدام » خبطت كلمة « مدام » اذن بنت البلد ، فثارت ثائرتها معتقدة أنه يهينها وهى « حرم مصون » وظفرها بعشرة من أمثال هذا الجربوع .. المسخوط .. المسلوع .. لكنه فى الواقع كان لا يقصد الاهانة ، بل بالعكس هو شديد التمسك بالاتيكيت ، وعندما أراد أن يصحح لها موقفه ، انحنى لهـــا انحناءة خفيفة .. وحاول أن يأخذ يدها ويرفعها الى شفتيه ليطبع عليهـــا قبلة اعتذار قائلا « شديد الاسف ، يا هانم » سحبت يدها بسرعة . اعتقدت بنت البلد انه يعود الى اهانتها ، فهوى كفها يرن على خـــده فى صفعة لقيت استحسان كل المتجمعين حولهما ، بل انبرى البعض أيضا يلقنونه « الأدب » بينما هو لم يكن « قليل الأدب » ، ولكن الادب مثل كل شىء فى المجتمع له مفاهيم ومفاهيم .

فى كل مشاويره .. يقف ينادى « تاكسى » وهو يكسر الياء الاخير ويمطها .. بلكنة فرنسية ، وهو بقامته النحيلة شديدة النحول ، وشعره الاكرت الذى آلى على نفسه الا يمتد اليه المقص فتدلى على قفاه مثل الماعز ، يبدو كسائح من أبناء دولة آسيوية أو أفريقية ، مما يغرى أصحاب التاكسيات ببقشيش كبير .. فأصبح حظ الميتر توفيق خوخة طيبا من هذه الناحية .

وقد تعتقد أن الميتر خوخة .. بحقيبته الدبلوماسية الانيقة .. محام ، أو شيء من هـــذا القبيل ، ممن ذهبوا الى فرنسا وأكملوا دراساتهم ، لكن أصل الحكاية انه عندما تكرر حصوله على الشهادة الثانوية بغير مجموع ، تحايل أبوه فأرسله الى بلاد بره ، عله يعود بأى شهادة فى التجارة ، فى الحقوق ، فى الفندقة ، أو فى أى شيء .. المهم يعود الولد بشهادة تحفظ المظهرية بين المعارف ، وتضمن له وظيفة فى أى ادارة ، أو كما يقول أبوه فى أى داهية ، يلحق بها .. قد تسأل من أين للأب بالمال الذى يغطى مصاريف ابنه فى بلاد بره ؟ صحيح أن الأب المعلم شلبى خوخة كان أيام الحــرب العالمية الثـانية يبيع الأساور الزجاجية والحلقان الفالصو فى الموالد والمواسم والاعيـاد ، يجوب بها البنادر والقرى فى وسط الدلتا متخذا طنطا مقرا له وسكنا لأسرته ، الا أن دوام الحال من المحال ، ولا تعجب فهذه مشيئة الله .. تدرج الأب المعلم خوجة ، فتحول الى تجارة الدبابيس والمسامير حتى استقر فى وكالة البلح معلما قد الدنيا ، له عمارتان ، فى الدقى واحدة ، والاخرى بالزمالك وذلك غير التى باعها بالعجوزة ، واشترى بجزء من ثمنها قطعا من الاراضى الفضاء بالعجمى والنعام ، فالاب ذو حاسة تجارية لا تخيب ، وعلى الرغم من ذلك لا يرضى التجارة لابنه ، ويريد له وظيفة ميرى . وربما يلمح فى ابنه الخيابة من الاصل ، وهو يعزوها الى انه قد ورثها ، عن أمه وخاله ، لكنه نسى أن أباه أيضا بسطامى خوخة قد مات على قارعة الطريق من فرط خيابته وقلة عقله .. نسقط ميتا فى ميــدان المحطة محطما جائعا ملتاثا لادمانه الكوكايين .. كان المعلم شلبى خوخة يريد لابنه توفيق خوخة لقمة عيش مضمونة ، مهما كان المرتب ضئيلا ، فالمرتب لا يعنى شيئا فى النهاية ، اذ أن ايراد ماسيرثه من أملاكه تكفى لاعالة عشرة من أمثال توتو . المهم أن يعود ابنه اذن ومعه شهادة ، وقد قوى الأمل فى قلب الولد لما سمعه من ان من الشهادات مايشترى فى بلاد بره .. فقال الاب فى حزم لايهم الثمن . وفى بلاد بره عاش توفيق خوخة أربع سنوات

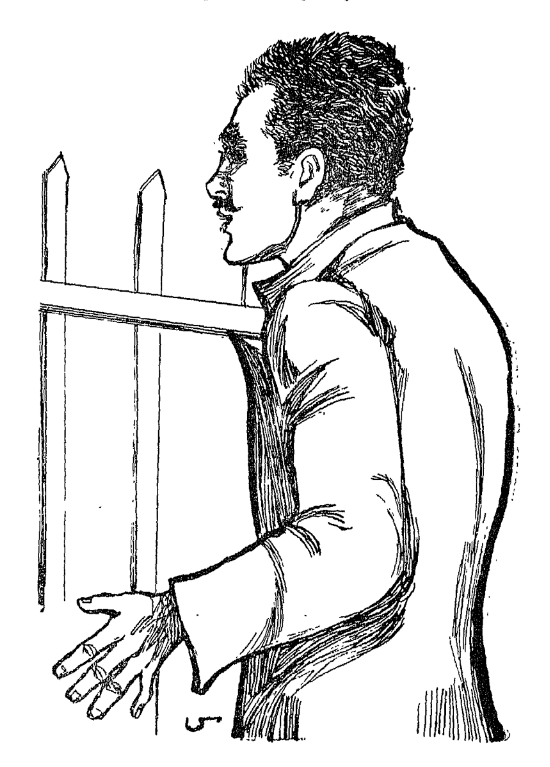
الا بضعة أشهر .. يبتز مال أبيه .. التحق بأكثر من معهد لكن اسمه كان يشطب لانصرافه عن الحضور ودخول الامتحانات . كان مشغولا بما هو أهم وأمتع فى نظره . أول الامر مر على كل المواخير ، ونام مع كل الساقطات ، وجرب الشقراء والسمراء وذات الشعر الاحمر ، بل والزنجية أيضا . ولولا تقدم الطب لما أفلت من أمراض وخيمة .. وكان ما يصله من المعلم شلبى خوخة لسداد المصروفات والرسوم الجامعية وأثمان الكتب وغير ذلك من المصاريف المفتعلة والمدعاة ـ يروح الى غير ما أرسل من أجله . وبعد ذلك وجد ان قضاء الوقت على المقاهى والحانات أمتع . وهنـــاك صرف كل همـــه فى لعبـــة البلياردو حتى أتقنها ، وعندما عاد الى مصر ، سأله أبوه عما معه من الشهادات فقـــدم له شهادة مزركشة الحواشى .. مكتوبة بحروف لاتينية كبيرة .. فرح بها الأب أول الامر ، لكن فرحه لم يدم عندما أخبروه أنها شهادة بفوز توتو فى بطولة للبلياردو . جرى المعلم وراء ابنه صارخا مولولا ليشرب من دمه ، ولكن أنى له أن يلحقه ، فقـد تدخلت الأم . هدأت من روع الأب وهونت عليه . وماله ؟ وهل تنقصنا حاجة ؟ .. ملعون أبو الشهادات وتسعيرتها .. ومع الوقت خمد كمد الأب ، ولكن لم ينطفىء تماما ، فمن وقت لآخر يهب فى الولد الخائب وفى أمه ، ويلقى تبعة الخيابة عليها .. ثم ما تلبث الأم الخبيرة بطباع الأب أن تطيب خاطره ، وتنسيه مرارته .

ولكن الاثر الذى أحدثته أربع سنوات الا قليلا فى بلاد بره على نفسية الميتر ، كان مزلزلا .. فقد أصبح مغتربا فى بلده ، معلقا بين الارض والسماء ، لا يستطيع أن يضع قدمه على أرض راسخة ولا قبل له بالتحليق فى الاجواء العالية ، ولهذا فهو دائما ناقم ساخط ، مما أحاله الى كاريكاتير لمصلح سياسى . يقارن أحوال الناس فى بلده ، بأحوال الخواجات فى بلادهم ، فيأسى لبنى وطنه ، ويريد لهم أن يصبحوا ـ وفى يوم وليلة ـ متمدينين عصريين متقدمين ذواقين للفنون والموسيقى الكلاسيك . كيف تذيع المقاهى برامج الراديو ، ولماذا لا تدير اسطوانات بيتهوفن وموزار ورافيل ، بل وأيضا هيندميت ؟ أو على الاقل لمـــاذا يجلس الرجال هنا على المقاهى وقد ركبهم الخمول ، ولمـــاذا لا يكون فى كل مقهى « بيست » يرقص فيه الشبان والشابات رقصات التانجو والبولكا والتويست وغيرها من الرقصـــات التى تربى على النشاط والحيوية ؟! وعندما قيل له : « الواحد مننا هنا الهم راكبه ليل ونهار .. موش زى الناس هناك البال رايق ، والحالة معدن وكل حاجة

ماشية بانتظام » قال « اذن ، فلنصلح كل شيء » وأصبح هذا شعاره يعلنه كلما دخل فى نقاش عام ، حتى عرف أنه الميتر خوخة مصلح كل شيء » . ولماذا تقتصر الاذاعة على الكرة ؟ لماذا لا تذاع أيضـا مباريات البيسبول والكريكيت ، وغيرها من الرياضات الراقية حتى يرقى بذلك ذوق الجمهور وتتسع ثقافاته ومداركه ؟ وعلشان يشوف الدنيا بيجرى فيها ايه ؟!

ومشروعات المصلح السياسى توفيق خوخة عديدة لا تحصى .. كلها مبتكرة .. وتحتاج والله الى التأمل .. لماذا يأكل الجاموس المصرى البرسيم ؟ ماذا لو رعى نباتات وحشائش عطرية ؟ .. لماذا ؟ .. حتى يأتى الحليب عطرا ، مثل حليب الابقار فى فرنسا وسويسرا . ونهر النيل العظيم هذا غير مستغل حقا . لماذا لا تلقى اليه أسماك الزينة الملونة حتى تتكاثر فى مياهه ؟ وحبذا ، أن تنزل سحارات زجاجية الى جوف النهر لمشاهدة أسراب السمك الاحمر والازرق والفوسفورى والاسود . يا للمناظر ، يا للروعة ! .. أما المسرح الجليدى فهو من أفكار غيره ، ولكنه يرحب به ويباركه ، حتى تصل مصر الى مكانتها اللائقة ! .. أما عن الريف ، الريف المصرى الخامل ، فهو لا يغيب عن تأمل الميتر خوخة أيضا .. هو يفكر كثيرا فى اصلاحه ، ولديه مشروع بأن يكون فى كل قرية صالة للبلياردو ، لانه أنسب لعبـة يستطيع الفلاح أن يمارسها ليرفه عن نفسه بعد عودته من الحقـل والفراغ من أعماله اليومية الشاقة . وهو ـ أى الاستاذ توفيق خوخة ـ يشترط أن تعمم هذه اللعبة الممتازة فى كل القرى على قدم المساواة، سواء تلك التى دخلتها الكهرباء ، أو تلك التى لم تدخلها بعد ، وتلك التى بهـا مياه للشرب وتلك التى تشرب من الترع والمساقى . أما بالنسبة للمدارس فلدى المسيو خوخة فكرة « عزيمة » ،أى عظيمة ، هى التربية الجنسية على جميع المستويات . فليس فى بريتانيا كلها من لا يعرف الفرق بين الرجل والمرأة . ومن العار أن نكون هنا بهذا الانغلاق والتأخر .

الباب الضيق



الباب الضيق

نظر المتهم الأول الى وجوه من بالقاعة . انه يعرفهم . يستطيع أن يصنفهم . كلهم وضعوا فى أماكنهم ليراقبوا ويحرموا أصحاب الحق فى حضور هذه المحاكمات العلنية .

يعرف ما هو مرغوب منه . أفهموه قبل الجلسة كل شيء . ليس مطاوبا منه كى يفرج عنه سوى كلمة واحدة . سوف يسأله القاضى هل كتب ماعثر عليه فى أوراقه مؤمنا بما كتب ؟ فاذا جاءت الاجابة « كلا » فسوف يكون الحكم جاهزا بالبراءة .. هكذا أعد كل شيء لاظهاره ورفاقه بمظهر المفترين المتهجمين ، واظهار المعتدين بمظهر الشرفاء .. كلمة واحدة أمرها بسيط .. أدار عينيه الى كل الوجوه الكئيبة الصماء التى تزحم المكان ، وأيضا تذكر كل تلك الوجوه التى تعذبه وتتوعده .. هناك .. هناك وراء القضبان . ومن يريد أن يعود الى هناك ؟ من ؟ من يحتمل الكى بالنار والضرب حتى الموت ؟ ما زال صوت السياط يدوى فى أذنيه . رفع يده يتحسس الاصابات تحت القميص . ولماذا كل هذا ؟

كانت القضية التى شغلته على الدوام هى قضية « التقدم » ان الطبيعة قد ربطت برباط وثيق بين الحقيقة والسعادة والفضيلة . ولكن التقدم فى حقيقته من صنع البشر . لماذا يؤاخذونه ؟ ألأنه تحمس للكشف عن الطريق أمام الفرد الى حريته والى النماء الكامل لامكاناته البدنية والعقلية ؟ ان تحرير الكتل الشعبية ـ وهذا ماداب على كتابته ـ الشرط الرئيسى لتحرير الفرد ، فالفرد لا يتأتى له التحرر الا من خلال المجموع برمته .

ابنه بانتظاره ، وكذلك زوجته تنتظره . هما ليسا فى القاعة . لم يؤذن لهما بطبيعة الحال . الدخول بالبطاقات . عليه أن يقول « كلا » وسيتبعه بعد ذلك المتهم الثانى والثالث والرابع . كل منهم سيقول بعده ذات الكلمة « كلا » ويتنصلون جميعا من تلك الاوراق وسيصدر القرار بالبراءة . وقد تساءل فى ظلمات زنزانته « لمن كتب كل ذلك ؟

انه لا يسمع صدى لما كتب ، ولا يرى جدوى لما فعل . الناس كلهـا لاهية ، معرضة ، منشغله . تبلدت الاحاسيس . لم يعد يحركهـا عمل ايجابى ، ولا انفعـال ، ولا تضحية . وحرام التضحية فى غير محلها . سينصرف الى تربية ابنه . انه صغير ، وبحاجة اليه ، بحاجه اليه حقا . فهـو ما زال فى الثـامنة من عمره . وقد كان سـأله صبيحة أن دخلوا مسـكنه وفتشوه : « متى يا أبى ستشترى لى ساعة ؟ » الزمن يمر ، ولن يكون بامكان ابنه حتى أن يخطو الى الامام ، فالساعة قد انكسرت بالنسبة له وتوقفت عقاربها .

بعد أن ينتهى ممثل الاتهام من كيل اتهاماته ، سيقف محاميه ــ هذا ماتوصل اليه من اتفاق ــ ويطلب الرأفة بموكله . ثم يلتفت اليه رئيس المحكمة ، ويوجه سؤاله ، وعليه أن يجيب معلنا ندمه على ماكتب ، ويتعهد بألا يعود الى ذلك ، فقد تبين له أنه كان مخطئا .

جال ببصره فى كل الحاضرين بالقاعة . ناس بلا طعم ، ماسخون ، فسدت نفوسهم ، وماتت ضمائرهم . أهؤلاء مواطنون مثله ؟ أمن أجل هؤلاء جاهد وتشرد ؟ أمن أجل هؤلاء اضطهد وفقد حريته ؟ وها هو فى النهاية من أجلهم يمثل أمام القضاء ؟ يثير الجميع تقززه . من أجل من يخسر نفسه ؟ ليس من أجل هؤلاء بالطبع . ولكن من أجل من ؟ من أجل من يضحى ببيته وزوجته وابنه ، وبكل شىء ؟ من يستحق أن يساق من أجله الى السجن ؟ والى المشنقة ، ربما ؟! من ؟ ان أحدا لم يتحرك عند اعتقـاله . لم يحتج أحد على مالاقاه من سوء معاملة وعذاب . لا أحد . لا أحد . حقا لا أحد . فليقنع اذن بتربية ابنه . سيمسك بيده الصغيرة النحيلة ، ويسير به الى المدرسة فى الصباح . وسيحمل عنه حقيبته . وعلى باب المدرسة سينتظره حتى يجرى فى الفناء المفروش بالرمل ، ويندمج مع رفاقه الصغار فى لهوهم البرىء . وسوف يعود اليه الساعة الثانية تماما ، لن يتخلف لحظة واحدة ، ليأخذه الى البيت ، ويسمع منـه أخبـار المدرسة والأولاد . وسيشترى له طوابع . سمير يحب الطوابع . سيشترى له طوابع من كل بلاد الدنيا . سيذاكر معه دروسه ويحكى له حكاية قبل النوم ، حتى يغمض جفنه ويروح فى الاحلام . سيغلق بابه ، ولن يلتفت الى العالم ، لا أحد يعنيه . لا أحد .

كم ستكون دهشة زوجته وفرح ابنه بعودته . فليغتنم هـذه الفرصة الذهبية التى عرضت عليه . فليقل الكلمة المفروضة عليه ، وليسترد حريته . والا ، فقد تتلقى زوجته يوما ما ، ربما قريبا ،

مكالمة تدعوها بكل برود أن تأتي لتتسلم جثة زوجها .
جال ببصره فى الحاضرين بالقاعة . متحسرا راثيا . وفد اليه صوت الشاعر يقول : رأيت نفسى أعبر الشارع ، عارى الجسد أغض طرفى خجلا من عورتى ثم أمده لأستجدى التفاتا عابرا ، نظرة اشفاق على من أحد فلم أجد ! » .. لمح فى نهاية القـــاعة صبيا صغيرا . بدت عيناه السوداوان واسعتين . وشفتاه بدتا كما لو كان يريد أن يقول شيئا .. عتابا ؟ لوما ؟ سمع رئيس المحكمة ينـــادى عليه باسمه . التفت اليه . انتفض . وقام . عاد ينظر الى الصبى . من الذى أذن له أن يحضر الى هنا ؟ هـــذا الطفـــل كيف نبت بين كل هـــذه المخلوقات العطنة ؟ انه ليس منهم .. عيناه تتسعان .. مثبتتين عليه . شفتاه تنفرجان . تريدان أن تقولا شيئا .. اليه ؟ اليه هو ! خفت صوت الشاعر لكنه مضى يقول « اذن .. لو اننى ــ لا قـــدر الله ــ أصبت بالجنون ، وسرت أبكى عاريا .. بلا حياء .. فلن يرد واحد على أطراف الرداء .. »
سمع رئيس المحكمة يسأله « هل تؤمن بما كتبت ؟ » .
انه كتب من أجل ما هو أخضر فى البلاد ، من أجل كل جيل طالع يتلمس الصدق والاخلاص والنقاء .
لم يجب . سأله القاضى من جديد :
أجاب بانزعاج :
ــ كلا .
انفرجت أسارير محاميه ، وكذلك أسارير ممثل الاتهام الذى شرع يتحفز من جديد . عاد الامر اذن فى طريقه المرسوم يسير . كانت هذه الكلمة التى طاب منه أن يقولها ، الكلمة التى أرغم على قبولها ، وهدد كى يقولها . جاء الصوت يفح فى أذنيه من جديد « لو اننى لا قدر الله ! ــ سجنت ، ثم عدت جائعا يمنعنى من السؤال الكبرياء فلن يرد بعض جوعى واحد من هؤلاء ... هذا الزحام .. لا أحد » شفتا الولد من بعيد تقولان له شيئا . ذلك الوجه النحيل الشـــاحب ، هناك ، فى أغوار القاعة يتأجج برسالة صامتة يريد أن يبلغها اليه ، ويضىء بفهم جديد . من الذى أتى به الى هنا ؟ من الذى أذن له ؟ كيف دخل ؟
ــ كلا .
اعتـــدل رئيس المحـــكمة فى جلسته ، والتفت الى كاتب الجلسة قائلا :

ــ أكتب . أثبت فى المحضر ان المتهم الاول . . .

لم يعد يسمع ما يقال . عاصفة هوجاء فى عقله . صوت بداخله يتمايل مثل ألسنة اللهب . هل ينكر ؟ يخون ضميره ؟ صوت الشاعر عاد يقول « هذا الزحام لا أحد » . العينان الواسعتان فى أغوار القاعة تستوعبه . تصبحان مئات العيون ، آلافا . من خلالها أصبح يرى . لهذه الاجيال يكتب . أيكذب عليها الآن ؟ هل ينسى سنوات الكفاح والايمان ؟ صفاء ساد داخله . عرف الاجابة الآن . تذكر كم تعذبت زوجته كى تأتى الى هذا العالم بابنه سمير . الارض ، لأجل من يشق المحراث ثراها ؟ الشعب اذن ليس من مات . ليس الشعب هذه الوجوه الكالحة من حوله ، بل هو كل أخضر آت الى هذه الارض . أيقضى على الامل الذى جاهد لبثه فى القادم من الاجيال ؟ نظر الى شفتى الصبى مرة أخيرة . وكرر القول :

ــ كلا .

التفت اليه رئيس المحكمة وقال :

ــ كفى . المحكمة سمعتك .

جال المتهم ببصره فى رفاقه الجالسين معه بالقفص . ثم علق بصره بالآية المعلقة على الحائط خلف منصة القضاة . ثبت عينيه باصرار فى الباب الضيق الذى أدخل منه الى قفص القاعة . وقال :

ــ كلا . كلا . لا أستطيع . لا أستطيع !

فى الطريق إلى ساحة الإعدام



فى الطريق الى ساحة الاعدام

عند منعطف الطريق رأى زيد جمعا صـــاخبا حول رجل حافى القدمين ، مهلهل الثياب ، استطال شعر ذقنه ورأسه ، ولا تخلو نظراته الشاردة من نبل دفين . فهم زيد أن هذا الرجل محكوم عليه، فقد كان الجند ورجال الدولة من حوله مصطفين ، وفى موكب رسمى يسيرون على النحو المقرر لمواكب الاحالة الى الساحة التنفيذية خارج أسوار المدينة .

هرول عجوز بدين يلاحق المحكوم عليه . يحـاول الاقتراب منه ، ويقول بصوت جهورى ذى نبرة حانقة :

ــ ألا تنشغل على مستقبلك ؟ أنا عمك ، يافتى ، وقد نصحتك كثيرا . ألم أنصحك ، يا ولد ؟

لاحقته أيضا امرأة بدينة رجراجة النهدين والارداف ، وبصوتها الرخيم الأجش قالت :

ــ ولا حتى على أطفالك لا تنشغل ؟ ولا حتى على حياتنا اليومية ؟ أحضر محصل النور ايصال الدفع أمس .. وأول الشهر يحل قسط المدرسة .

مدت ذراعها ، محاولة أن تقرص أذنه ، واستطردت تقول :

ــ الاولاد .. على الاقل الاولاد .. ليس المهم أنا .. لا أريدك أن تشترى لى حقيبة اليد اللامعة التى رأيتها عند منال .

لم ينبس المحكوم عليـــه بكلمة . ولم يرفع عن الارض رأسه المنكسة .

الجمع يركله . يضرب باللكمات فى جنبيه وصدره . والشرطى يدفعه بمؤخرة بندقيته .

قال أحد المتجمهرين موجها الحديث الى المحكوم عليه باستنكار :

ــ لا تريد أن تكون عبدا للحياة اليومية التافهة .. هيه ؟ أيهـــا الاحمق ! حيــاة الناس لا تريدها ، ياعدو الانسانية . قالوا لك كن موظفا فرفضت .. اشتغل بالتجارة أبيت .. قلت (مقلدا اياه

ساخرا) لا أريد أن أكون مجرد آلة اجتماعية ..
كف عن التقليد ، وعاد الى لهجته يقول :
ـ فاشل .. ليس عندك فضول .. لا تحب التسلية .. لا تريد أن تحيا حياة هامة أصيلة متجددة ، مثلنا .
أشار الى الجند ، وأردف قائلا :
ـ أنظر . هأنت تتردى بحماقتك ، هأنت تسقط .
قال الشرطى :
ـ وما أتعس لحظة السقوط ، لو تعلم !
قال العم ، كما لو كان يدافع عن نفسه :
ـ ألم يكن أفضل لك يا ابن أخى أن تهرب من القلق ؟ قلت لك ذلك مرارا .
قال الشرطى :
ـ لكن الامر قد قضى الآن .
وقف رجلان من الجمع يتابعان مايجرى . وقال أحدهما للآخر معلقا :
ـ كان يشكو العزلة . وتجثم عليه الوحدة . كان يصدع رأسنا دواما بقوله : أنا غريب .. غريب حقا بينكم . أحس بذلك صدقونى .. أقطن البيت المجاور لبيته ، وأسهمت فى الايقاع به .. شعوره بعدم الاستقرار آفته .
استدار نحو المحكوم عليه ، وقال له ساخرا :
ـ الحياة غرور باطل .. هيه ؟ عبث لا غناء فيه ، هيه ؟ وجود بلا ماهية ، هيه ؟ خذ هذه ..
انهالت على المحكوم عليه الضربات من كل ناحية . ومزقت الاصابع المسعورة سترته . تعثر وسقط .
سمع يقول « حان الوقت لأتحمل مسئوليتى . أعرف الآن ماذا يعنى الالم . لكن بشىء من العزم والتصميم سأجتاز محنتى » .
نهض .
قال العم :
ـ انت صانع نفسك ؟ انت جلاب النكبات على نفسك !
سمع يقول أيضا « أشعر بتسامح نحو الغير . ورغم افتقارى الى السند والمعين لا ألوم أحدا » .
هرولت الزوجة وراءه . مدت رقبتها حتى كادت شفتاها تلامسان اذنه . صرخت تقول :

ـ عندما تزوجتني كان يجب أن تعرف أنك لم تعد حرا في شيء ، وان الموت هو الطرف الاخر للعلاقة .

قال الشرطي :

ـ هأنت تعرف العالم معرفة عملية .

قال الجار :

ـ الوجود مع الآخرين ضرورة لا مفر منها .. نحن نحمل بداخلنا موتا للآخر . لاننا نحبه .. كما يحمل لنا هو بدوره موتا .

لاحقت المحكوم عليه ايضا امرأة عجوز عجفاء . مضت تقول له :

ـ وأنا .. ألم تفكر في ؟ ألم تفكر فيما سيكون مصيري بعد ان أفقدك ؟

استجمعت أنفاسها ، وقالت :

ـ ربيتك حتى تكون تكأتي وعوني في شيخوختي .. ضحيت بشبابي .. لم أتزوج بعد ترملي .. وذلك من أجلك .. من أجل ان أربيك .. أدخرتك لعوزي .. وهأنت تضع رأسك في حبل المشنقة عن طيب خاطر .. وبدون مقابل .

توقفت عن المسير برهة .. ثم مضت تلحق به ، قائلة :

ـ وهل يعطى أحد شيئا اليوم دون مقابل ، يابني ؟ ماذا ستفعل أمك بعدك ؟ بدونك سأستجدى..في الشوارع وعند حنفيات المياه.. سيطردونني .. سينهرونني ويهبون في وجهي شاتمين .. سأنام الليل على الأرصفة في البرد ، وعظامي لم تعد تقوى ..

وقفت .. أزدردت لعابها .. وصاحت فيه :

ـ أيها الولد العاق ، عليك لعنتي .

ضربه الجند بالسياط ـ وكانوا من البربر الأشداء ـ بصق أحدهم في وجهه ، وقال :

ـ أين العزم القاطع ، اذن ؟ أين القرار الحاسم الاكيد ؟

سأل أحد المارة الواقف الى جواره :

ـ أهو كافر يشتغل بأمور السحر ؟

أجابه بقوله :

ـ كان يترك دماء أطفاله تنزف .. يجمعها في زجاجة .. ويصنع منها مقويات .. كان يريد أن يجفف لحم امرأته .. ويبيعه خارج الجمعيات الاستهلاكية .. مثل السمك البكلاه ..

تمتم زيد قائلا : « الا يتدخل أحد لينقذ هذا الرجل ؟ »

لم تبد على ذلك أية بادرة ، بل دوت فرقعة السياط . ومضى الموكب يبتعد متثاقلا .

سأل أحد المتلكئين متلكئا آخر :
ــ لكن كيف وقع ؟ وشاية ؟
قال المتلكىء الثانى :
ــ لم يكن الامر بحاجة اليها . لم يكن يظهر فى المحافل .. وبعملية حسابية بسيطة .. ثم مع وجود كل هذه العقول الالكترونية .. وقع .
ــ الوجود الانسانى آخذ فى التشرب بالرياضيات .
ــ الرياضيات فى واقع أمرها لعب .. لعب بالمفاهيم المجردة .
وما العقول الالكترونية الا بنات شرعيات للرياضيات .
ــ حقا بكل أجهزة التسجيل .. والآلات الحاسبة هذه .. ما كان ممكنا الا يعرفوا مكانه على وجه التحديد ..
ــ كان من العار على مدينتنا الا يقع .
سأل متلكىء آخر رفيقه الذى يكبره سنا :
ــ وما مصيره ؟ ما المصير ؟
ــ نار الجحيم موقدة . ستنهش لحمه ضفادع ضخمة وتماسيح بشعة . أنيابها تقطر سما ، ومخالبها حادة تمزق جثته اربا اربا .
ثبت عينيه على صاحبه ، وقال بلهجة محذرة :
ــ حذار . يابنى من كل معصية . العام الماضى شنقوا واحدا لأنه سرق أرنبا من حظيرة العمدة . لا تقل لا عندما تكون الاجابة الصحيحة نعم . ولا تقل لا عندما يكون مطلوبا منك أن تقول نعم . أنا أكبر منك سنا وأعرف الكثير . يمكنك أن تشترى مجموعة الاجابات النموذجية من صالة بيع المطبوعات الحكومية ، أو من المكتبات الكبيرة .
كان المتلكىء الشاب على قدر من الفضول . لم يستطع الا يسأل :
ــ وهذه المسوخ ، ياسيدى الشيخ ، من أين تطلع ؟
ــ تطلع من كل جهة . يزحف بعضها نحوك . وينقض الآخر عليك . انها فى كل مكان حوالك .
حرك سبابته اليمنى فى حركة نصف دائرية من حوله . لمح زيدا الى جواره . داخله الارتباك لحظة ثم تجاهله . عاود الحديث ملتفتا الى الشاب الفضولى :
ــ الأرض تنشق فتثب منها والسماء تمطرها ، مئات العيــــون المستديرة القاسية ترقبك ، وتدب مقبلة عليك ، تنفث الرعب فى أوصالك . عيون محملقة ، واسعة ، لا يطرف لها جفن ، جاحظة سوداء وزرقاء وحمراء قانية فى لون الكبد المشوى .

أشار لرفيقه الى المحكوم عليه الذى يتعثر فى مسيرته بين موكب المشيعين :

ــ ستمزق الوحوش احشاءه فى الآخرة . وستغرس أنيابها فى بطنه . فليرحمنا الله من هول العقاب !

رفع المتلكىء الشاب ذراعيه الى أعلى ، وقد غاض الدم من وجنتيه خوفا :

ــ اغفر لنا ، يارب !

استعذب المتلكىء الاول ماحققه من تأثير مزلزل فى قلب رفيقه الشاب . فمضى ينصحه بما يجب أن يفعل :

ــ على المرء أن يشقى على هذه الارض ، وأن يعانى صنوف البلاء . هذا أقرب طريق الى الابدية . يجب أن يتطهر الانسان على هذه الارض من ادران الجسد الدنس ، وذلك بالعذاب والالم ..

ربت زيد على كتف الشيخ الواعظ برفق . كان يريد أن يستوضح منه أمرا شغل باله . سأله بسذاجة وبراءة :

ــ ولماذا لا يعانى المديرون ووكلاؤهم المفوضون عذاب الجوع ، والتعلق بالاوتوبيسات المزدحمة ، والوقوف فى الطوابير . وحتى اذا فحصت اقراراتهم فبرفق يستجوبون ويخرجون مثل الشعرة من العجين ؟ ألن يدخل هؤلاء الجنة ، ياسيدى المبارك ؟

ارتبك المتلكىء المتبحر فى أمور الدين . أسرعت تفاحة آدم الناتئة فى عنقه صعودا وهبوطا . وقال متلعثما :

ــ كيف ؟ كلا .. أجل .. كلا .

ثم انفجر فى زيد قائلا :

ــ ما هذا الذى تقوله ، ياقليل الادب ؟ مثل هذا الكلام يرديك التهلكة . مالنا وللمديرين ووكلائهم ؟ مالنا ووجهاء القوم ؟ مالنا وهؤلاء الاكابر ؟ نحن قرويون خاشعون لا حول لنا ولا قوة . وما يصدق علينا لا يصدق عليهم .

أراد زيد أن يبدى أسفه للشيخ المبارك حتى يصحح رأيه فيه ولا يعتقد عنه ما لم يقصده ، فاستطرد يسأله سؤالا أكثر عمومية وتجريدا :

ــ حسنا ، ياسيدنا ، وما هذه الحياة التى نحياها ، اذن ؟

انتفخ الشيخ خيلاء :

ــ آه ، هذا السؤال تهمنى الاجابة عليه .

ثم مضى فى حديثه متفلسفا :

ــ الحياة دخان يتبدد فى الهـــواء .. غصن يعتريه الذبول .. خطوة نحو القبر ..

تلاعب بحبات مسبحته ، ومضى يقول بحماس ورزانة كمن يدلى بسر خطير . لكن صوته لم يخل من التكلف :

ــ ثم تبدأ المحاكمات . أنا فعلت الخير فالى الجنة أذهب ..

ثم صوب سبابته الى زيد بحركة عدوانية متشفية :

ــ انت ارتكبت الشر فالى الجحيم تذهب .. الى الجحيم .. وبئس المصير ..

ثم جذب رفيقه الشاب من ذراعه وابتعدا مسرعى الخطا . خشى الشيخ أن يدب الشك فى قلب رفيقه ، ويتبخر تأثيره عليه فآثر أن يجذبه بعيدا عن ذلك الشكاك الفضولى .

سمعه زيد يهمس فى أذن الشاب :

ــ فلنبتعد عنه .. حل الشيطان به .. روح شريرة تقمصته .. الصلوات وحدها قادرة على طرد الارواح الشريرة .. أو ربمـــــا كان طبيبا فارسيا متنكرا .

أو ربما توجس الشيخ المبارك خيفة من زيد .. فمثل هـذه المحافل تزخر عادة بالآذان التى تصغى ثم تنقل ماسمعته الى من يهمهم الامر .. وكثيرا ماتضيف من عندياتها مالم تسمعه .. بل ان بعض الخبثاء يتعمد توجيه الاســـــئلة التحريضية حتى تقع الالسنة فى الشراك المنصوبة بمهارة .. تماما مثل تلك الاسئلة التى انزلق اليها زيد .. وقد روى عن « رئيس الاسرار » انه قال « احضروا لى خمس كلمات .. خمس كلمات فحسب .. من أقوال أى رجل .. وأنا كفيل بأن أستخلص منها ما يرسله الى حبل المشنقة » .

كان ممنوعا على الجماهير أن ترجم المحكوم عليه بالحجارة ، فقد كانت هذه تعليمات مصلحة السياحة ، حتى لا يستغل المفرضون هذه الظاهرة فيشوهوا سمعة البـلاد فى الخـــــارج فتقل موارد السياحة ، بمقـــولة أن هـــذا الشعب بربرى ، يرجم معدومينه بالحجارة .

لكن التعليمات شيء ، وما فى الاعماق شيء آخر ، فالطبيعـــة البشرية لا تغيرها الكلمات ، وما الذى تقـدر عليه هذه ازاء رواسب ثقيلة الوطأة وقديمة ؟

وقد رأى زيد ذلك بنفسه . سمع احد متابعى الموكب يقـــول لرفيقه :

ــ فليسلق فى ماء مغـــلى ، وليصنع منه حســـــاء يلقى الى الكلاب .
وقال رفيقه :
ــ انتظر .. سنرى جسمه بعد أن يشنق يقدد مثل الرنجة .
ملأ خياشيمه بالهواء ، وقال :
ــ ونشم رائحة الشواء !
قال الاول :
ــ أفضل أن تقطع رأســه ، وتعلق على عمــود .. أو أن تنزع أحشاؤه ويصنع منها ممبار ..
وأردف يقول :
ــ تعذيب الجسد أمر ممتع ..
وصدق الآخر على كلام رفيقه قائلا :
ــ بل واجب مقدس .. حتى تخلص الروح .. وتتطهر .
هم زيد أن يصرخ ويقول « حق الفرد نابع من داخله » لكنه هزيل ، ويخشى لو فتح فمه أن تهشم ضلوعه ، أو يضىء جسمه الملتهب مثل مشعل .
ومع ذلك لم يقو على أن يمسك لسانه .. تمتم ســـــاخطا « ذئاب .. ذئاب » .
رمقه شرطى قريب منه بنظرة مزلزلة :
انكمش زيد داخل نفسه . غلى شىء فى صــــدره . تعتقد انى ضعيف ، لا أقوى على منازلتك ؟ هاك هــذه اللــكمة . خذ انت هذه ، أيها الوغد .. بل خذ ، أيها الكافر .. خيل لزيد أن الشرطى ركله ركلة مؤلمة فى بطنه .. هذا ما لا يجوز السكوت عليه .. شمر عن ساعديه وأطبق قبضتيه .. لكمة يمينية فى الفك .. ثم أخرى تحتية فى البطن .. ثم تنطلق ذراعه اليسرى كالبرق .. الى الانف .. سالت دماء الخصم .. سمع الناس تشير اليه باعجاب : من يكون هذا الملاكم ؟ .. زاد حماس زيد فى هجومه .. صوب لكمة يسارية الى الاذن . ثم لكمة يمينية تحت الذقن .. كانت قاضية
لمعت عينا زيد ببريق الانتصار .. تلفت حولى باحثا عن نظرات الاعجاب لا سيما من النساء .. لكن الشرطى كان لا يزال هناك ، واقفا كجلمود صخر لم يمسســه أحــد .. كان ذلك من أحــلام اليقظة .
لكن شجارا مفاجئا كان قد نشب بين الجموع لسبب تافه .

ولا عجب ، فنحن فى كرنفال الصخب .

صاح ضابط فى الجموع :

ـ كفوا عن الشجار ، أيها الاوغاد . ابتعدوا جميعا من هنا .

اشار الضابط الى زيد عرضا ، وقال :

ـ تراجعوا خطوتين .

تراجع زيد أربع خطوات . ابتلع لعابه ، ولوح بيده علامة النفى قائلا :

ـ لم أر شيئا .. لا شأن لى بأحد .

قال الشحاذ بصوت منغم :

ـ بالحسنة تشترى الجنة . وتغفر الخطايا .. تصدقوا ..

كان الصخب كثيفا متوترا . انهمر على زيد مثل الحجارة . بشر كثيرون يجيئون ويذهبون . يتداخلون ويختفون ، ثم يظهـــرون من جديد . لا أحد يظل على ثبات .

علا صوت الشحاذ :

ـ بالحسنة تلتئم الجروح .. ويصاد العرسان ..

فى كل مكان نساء مبتهجات بأناقتهن ، يختلن فى رشاقة . قالت المرأة ذات الباروكة المصنوعة من صوف الغنم :

ـ ياله من جو جميل للحفلات التنكرية .

ودارت حول نفسها كما لو كانت تؤدى رقصة : قالت لها زميلتها ذات الباروكة المصنوعة من شعر الخيل .

ـ يا للسعادة .. الرجال يحيطون بنا من كل جانب !

كان ثوبها من البلاستيك مقتبسا من أزياء رواد الفضاء . وقد تحلت أيضا بالاقراط والاساور والخواتم رمزا لامتزاج الذوق الاوربى بالذوق الافريقى والاسيوى . أما فى أنفها فقد لبست حلقا ذهبيا هلالى الشكل .

صوب أحد مصورى الصحف المنتشرين عدسته يلتقط صـورة للحسناء .

التفت زيد اليه بنظرة تساؤل عما يعجبه فى هذه العنزة العصرية .. غمز له الصحفى من تحت نظارته وقال :

ـ الموضة يا أخ لا تعرف الحدود !

ثم خفض صوته :

ـ أمنية الحمارة أن تحظى باعجاب الحمير ! كثير من الزيجات الناجحة تتم فى مثل هذه المناسبات الصاخبة .

ـ بالحسنة تفتح الابواب . جميع الابواب .. قدموا الصدقات .

التفت الصحفى الى حسناء أخرى ترتدى سروالا من الحرير وتلجأ الى ابراز نحول خصرها باستعمال شال مبطن بمادة صلبة نوعا ما ، تلفه حول وسطها .. فبدا نهداها أيضا مثل كرات الهوكى . اطرى الصحفى أناقتها وقال « انت ملكة الاثارة اليوم » ثم طلب أن يلتقط لها بضع صور لغلاف مجلته .

زادت النبرة التهديدية فى صوت الشحاذ :

ـ لا تضيعوا الفرصة .. تصدقوا .. أذكروا المعجزات الكثيرة التى تحدث هذه الايام .

فتحت حسناء أخرى ضيقة العينين ذات رموش صناعية ، حقيبة يدها وقدمت صدقة .. ثم مضت تجرجر كلبها اللولو الاسود ، وتدخن سيجارة فى مبسم طويل وتنفث الدخان من أنفها .

أساور ، حلقان ، خواتم ، عقود ، تذكر بالموروث من عادات توتمية مشتقة من الرغبات الجنسية . النساء يردن اجتذاب الرجال ، يردن أن يزهين على غيرهن من النساء ، عطور ، تسريحات ، أناقة ، أظافر مقلمة وكعوب مخضبة بالحناء ، مخلوقات كثيرة ، روائح تزكم الانوف ، جوارب نايلون ، حقائب يد ، أقمشة شفافة ، قبعات ، قلائد ، نهود بارزة ، غرائز فائرة .. صفقات رابحة .. صبايا يتقن الى عرسان .. سماسرة نهازون للفرص .. ابتسامات .. كل شىء يباع ويشترى .. مسوخ بشعة الخلق .. حاوق فاغرة .. عيون محدقة لا ترى الا الظلمة .. أسنان صفراء .. وجوه متورمة .. كل بمعزل عن الآخرين ، يشغل من الارض بضعة أشبار .. ولكن التماسك بينهم وطيد ، مثل حية ذات ألوف الرءوس . واحد يمسك بقنديل فى وضح النهار ، وآخر وقف يعترف بآثامه أمام عجل أسود بليد ، وآخر وضع كرسيا على رأسه وعلى الارض جلس ، وآخر راح ينطح حائطا بعزم قوى ويصرخ صائحا « أنا الذى كنت السبب » أفعال منطقية للغاية . وما هو المنطق ـ من فضلكم ـ لو لم يكن هو ما يرضى الناس ، ولا يثير التمرد على تصرفاتهم ؟ الكل يجاهد ضد طبائع الاشياء ، وأى منطق أصدق من تخريب المنطق والصواب ؟

نظر المحكوم عليه الى الجموع وهى تعوى وتصرخ وتنفث سمومها ، وقال بصوت ملائكى :

ـ ماعدت أرى سوى النور السماوى الذى يلمع فى قلبى المنتصر .

تعالى صوت الشرطى الذى يحرسه ساخرا :
ــ قلبك المنتصر ، هيه ؟ حياتك البائرة تسميها انتصارا .
أشار الى ما حوله ، وأردف قائلا :
ــ كل هذه الرايات الملونة والزينات ، واللافتات ، والمصابيح المضيئة .. ألا تقول لك شيئا ؟ رافض للمباهج أنت .. أنظر حولك .. كل هذه المتع .. أنظر كل هذا البشر على الوجوه . وأنت ؟ ما بالك مكتئب على الدوام ، نافر على الدوام ، صـــامت على الدوام ؟ .. وهذه هناك .. حلاوة حمصية .. سمسمية .. مشبك دمياطى .. فولية حمراء وبيضاء .. جوز هند بالزبيب .. هريسة بالقشطة .. ألا تحس بأمعائك ترفرف فى جوفك طربا لكل هـــذا السكر الملون ؟
عاودت أمه الصياح من خلفه بصوت يلهث :
ــ لم تعد ابنى . لم يكن لى ابن قط . طيور السماء أولادى وجيف الارض أحفادى . من ينتسب اليك يعرض نفسه للعقاب ، وأنا جسمى لا يحتمل السجن وضرب السياط . سأتركك ..
ثقلت خطـاها . وقفت تسترد أنفاسها ، ثم أسرعت الخطـــا وراءه :
ــ واذا سألونى عنك ، سأتنصل منك ..
قال المحكوم عليه مستنكرا :
ــ انت أمى ؟!
مضت العجوز تقول :
ــ .. وسأقول ان بطنى لم تعرفك .. واننى لم ألدك :
رفعت نظراتها الى السماء ، ودقت صدرها بقبضتها :
ــ ألم أتألم لولادتك ؟ يا له من عذاب ضاع هباء .. لم تتغـــذ من جسمى .. لم يرضعك ثدياى ..
انحنى المحكوم عليه وأخذ من الارض حفنة من التراب . مد راحته ممتلئة بها وقال لها :
ــ ها هى أمى .
صرخت فى وجهه :
ــ أيها الولد الحبيب .. العاق .
أضناها المشوار . بعدت الشقة بينها وبين ابنها .
كانت ساحة الاعدام تقترب .
هناك .. عند أسفل التل .. فى مكان يطلق عليه « قبة الهواء » لاحقته زوجته من جديد . قالت له :

ـ لم تدفع رخصة التليفزيون . لم تستفسر عن المكالمات الزائدة .. تهمل دائما فى امور بيتك ..

انضم اليها العم قائلا :

ـ وفى شئون نفسك .. هكذا أنت لا صلاح لك ، تريد أن تظل نقيا ، هيه ؟ خالصا من كل التزام ، هيه ؟ قلت لك ألف مرة .. أفهمتك .. هذا العالم لكل حسب رغبته ، ومن سبق أكل النبق .. هأنت تأكل الحصرم ..

كان الموكب قد وصل الى الطريق القديم الباذخ . تيه من الدروب والازقة والحارات والعطفات تملؤها ضجة رهيبة .. تصب كلهـا فى ذلك الطريق الفخم الذى يقطع المدينة رأسا .

مضى العم فى تقريعه :

ـ تهوى النكد ، ولا تعيش أيامك الا فيه .. تسمى ذلك زهدا .. تسميه تنزها وترفعا .. ولكنك فى النهاية بلاء كبير .. لم يكن فى أسرتنا مدلسا غيرك .. كلنا أنذال فى رأيك .. لكننا أنذال شرفاء .. نعيش فى حالنا على الدوام .. ناجحون على الدوام . مرتاحو الضمير على الدوام .. لا نضايق أحداً ولا يضايقنا أحد . ما من أحد منا جميعا مغترب غيرك .. لا أعرف كيف ابتلينا بك بيننا .. نحن عرضة لان نفقد وظائفنا أو أن تغلق متاجرنا بسببك .

تعالى من احدى الخرائب القريبة مواء كئيب . ربما لمح القط ملاك الموت أو ربما كان يبحث عن أنثى .

خلف الفرقة الموسيقية ـ الفرقة النحاسية ، هكذا كانوا يسمونها ـ كان المداحون يرددون المدائح على ضربات الدفوف المصنوعة من جلد مشـــدود الى اطار متسع من الخشب ، وينشدون التراتيل بمصاحبة اكثر من ربابة ، أما التواشيح فتغنى على نغمات مزمار طويل يصنع من قصب الغاب يسمى بالارغول . كانت فرقة المنشدين مقطوعات رائعة من لحن « التأهب للهجوم » ولحن « نحن سادة البشر أجمعين » ولحن « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . كانت تنشد بحرارة واندفاع يلفت الانظار . وما كان المنشدون يغنون أغنية بذات الطريقة مرتين . كانوا يخرجون دواما على ما تأمرهم به عصـــا القائد . وقد حدث مرتين ، الاولى عند « بوابة النصر » والثانية أمام « دار البلدية » أن بلغ المنشدون قمة النشوة ففقدوا الوعى ـ وكانت الفرقة تختار مواقع معينة للاغماء ، وبخاصة أمام المقاهى والخانات وحيثما يكثر الجمهور ـ وقد استدعى حلاق البلدة فى المرتين لاسعافهم . وعندما أفاقت احدى المنشدات من الاغماء لشدة

استغراقها فى الغناء الروحى جالت ببصرها من حولها . وتنهدت مخدره الاطراف ، وقالت بشفتين مرتعشتين « كنت هناك حيث تذهب الارواح الطاهرة » كم تاق زيد أن يعرف منها أين كانت ، أين تذهب الارواح ، سواء كانت طاهرة أو دنسة ؟ ولكن فى هذا المهرجان الصاخب ليس ثمة شيء ممكن ، الا أن تجرفك الجموع ، وتصبح واحدا من القطيع ، تصرخ مثلهم وتضحك مثلهم ، وتتطهر على طريقتهم .

اصطدم زيد بسكير — واحد من كثيرين فى هذا الحفل الصاخب — زائغ النظرات ضامر العـــــود ، يحتضن زجاجة نبيذ من نوع الموسكات ، لا يعرف لقدميه مستقرا ، يتطوح ، يقع على الارض ، ينهض ويتطوح من جديد ، كانه لعبة . لوح بزجاجته لزيد وقال :

— أدام الله علينا الافراح .. كل يوم كرنفال .. حسبى من الدنيا هذا الشراب المعتق .. اللذيذ .. الذى ..

تجشأ ثم مضى فى لهجته المفككة :

— الذى يعيد الحياة الى الاوصال الرميمة .. ويحيل ..

لوح بقنينته مشيرا الى الجموع الصاخبة :

— .. يحيل هذا العالم الكئيب .. حلما باهر الجمال .

أسند ذراعه على كتف زيد واستغرق فى ضحك نسائى :

— .. كل شيء صنع على ما نشتهى .. واذا أصابك اكتئاب .. ها هو النبيذ .. أكسير السعادة والهناء ..

مد الزجاجة الى شفتى زيد وأصر على أن يذيقه طعم السعادة .. اطبق زيد على شفتيه ، ونحى يد السكير عن فمه بعد جهد .

تجشأ السكير وقال :

— كما تشاء أيهـــا الرفيق .. ربما كنت تفضل العرقى .. لكن الشيء المؤكد ان كل شيء صنع على مايرام .. واذا قرص الجوع أمعاءك .. الغليظة أو الدقيقة .. فهناك طبق الضفادع بالصلصة ، وطاجن الجراد بالارز والقرفة .

رفع عينيه الى السماء حمدا وقال :

— جزينا الثواب على أعمالنا الطيبات .. ووقانا الله شر الموت عطشا ..

أقبل سكير آخر . وضع كل منهما ذراعه على كتف الآخر ، وجرع كل منهما من زجاجته جرعة طويلة ، فسالت الخمر على رقبته ، ثم على صدره العارى . قال السكير الوافد :

ـ أبعد الله عنا الاتراح .. كل يوم مهرجان .. طالما ..
أشار الى الساحة ، ومضى وهو لا يكاد يتحكم فى لسانه :
ـ طالما .. نؤدى ماتوجبه النواميس .. ونقدم القرابين ..
انتابتهما نوبة من التشنج المكتوم ما لبث أن تحول الى ضحك من جديد .

قال السكير الاول لزيد وهو يبتعد مع زميله الذى يجره :
ـ متى فكرنا .. وجب أن نسكر .. كلما .. كلما .. أقبل الليل كان عذاب التفكير لا يطاق .

صرخ متهما وهو يبتعد مع زميله وتبتلعها الجموع مثل دوامة شرسة :
ـ هل تسمعنى ؟! هل تسمعنى ؟! من له أذنان فليسمع .. وليسكر مثلنا .. نحن أشرف من غيرنا .. نحن نسكر لننسى همنا .. ننسى عارنا .. وأنتم ماذا تفعلون بعاركم ؟

صفعه أحد الواقفين على قفاه . تزايدت القهقهات ، وأضيفت الى الرصيد الضخم من القهقهات التى تشيع الموكب السائر الى ساحة الاعدام . كان لابد أن تبطىء خطوات الموكب ، فقد نال التعب من المحكوم عليه حتى أنه تعثر فى سيره أكثر من مرة ووقع على الأرض ، واقتضى الأمر أن يجروه . كما كان قائد الموكب يأمر بالوقوف من وقت لآخر حتى يعود الانسجام بين فريق المنشدين والفرقة النحاسية فى المقدمة ومن ورائها الشعبة الاقليمية للفنون الشعبية بحواتها وقاذفى العصا وضاربى الشقلباظ وراقصة الشمعدان ، وهى امرأة ضخمة مدهشة مثل جبل ، ترقص وعلى رأسها شمعدان موقدة شموعه ، وكذلك حملة الاعلام والبنادير . أما قاضى القضاة وبطانته من المحلفين ورئيس الجلادين وكاتب الجلسة والمحضرين والحجاب والجند ، فكانوا يحتلون مقدمة الربع الاخير من الموكب الطويل الذى كان يزحف الى ساحة الاعدام مثل ثعبان مريض . كانت هناك اعتبارات أخرى لتوقف الموكب من وقت لآخر . فقد كان عازف الآلة النحاسية فى الفرقة الموسيقية زوجا لابنة قائد الموكب ، وقد أصيب فى الآونة الاخيرة بتصلب فى الشرايين ، فكانت الوقفات المتكررة تعينه على استرداد أنفاسه وعدم انفضاح امره والا فصل من منصبه ، وكثيرون يطمعون فى مثل هذا المنصب . وهم على استعداد للدفع . كما كان حامل الطبلة ينوء بحملها وهو ابن عم رئيس الجلادين ، فشل فى دراسته الثانوية ، فألحق بهذا المنصب

انقاذا لشرف الاسرة . وكان قاضى القضـــاة لا يعـارض فى ابطـاء الموكب ، فالزحف البطىء يزيد من مهابة المحفل .. كما كان يتيح لمن يريد أن يتصدق ، باسهامه فى مصـــاريف الحفل ، حتى تغفر خطاياه أن يلقى بدنانيره فى طريق الموكب . وكان الجنود بأرديتهم الحمراء ينحنون ويجمعون من الارض مايقذف به أصحاب الجـــود والكرم الذين يريدون أن تغدق عليهم الاوسمة والالقاب ، فكل شىء بحسابه فى مثل هذه المناسبات . ولهذا كان يفسح الطريق للاعيان وذوى الثروات لان يقفوا وراء كردون العساكر مباشرة على طول الطريق . وكانت العيون ترمقهم . وياله من عار يلحق البعض اذا كان ما ألقى به لا يتناسب مع مركزه المالى أو مكانته الاجتماعية . بل حدث فى العام الماضى أن يبست ذراع أحد المتصدقين وشلت عدة أيام لانه أراد أن يغالط ، فلم يتصدق بما يتناسب وايراده العام . كما كان لملقى العملات الاجنبية شأو خاص ، وخصصت لهم مقـاعد عالية من الخشب المطلى بماء الذهب .

على أن الصف الاول بعد كردون العساكر كان المكان المفضل أيضا للنشالين الذين يشبهون تلك الديدان السوداء التى يعالج بها ضغط الدم المرتفع ، توضع على الاجساد التى زاد فيها الدم عن حاجتها فتمتصه ، ويحس المريض بالراحة والشفاء لعـــودة التوازن الى تركيبه البشرى .. والحق أن نشالى تلك المهرجانات كانوا ، بدوافع وطنية بحتة ، لا ينشلون الا من تضخمت حوافظ نقودهم . وكانوا يقولون : بدلا من القاء كل ما تحتويه الحوافظ الى الطريق فيجمعه الجند ولا يعرف أحد بعد ذلك حسابا لمـا جمعوه ـ فالمال السائب يعلم السرقة كما يقولون ـ فلنحصل نحن على نسبة معقولة ، ولم يكن أحد من الاهالى يلومهم على ذلك ، فللنشال وظيفة اجتماعية لا تقل عن وظيفة الشحاذ أو حتى قاضى القضاة .

كانت مصلحة السياحة تتنهز هذه المناسبات لتشجيع السياحة .. فترتفع اللافتات العريضة .. المضاءة بالنيون حتى فى وضح النهار .. وتكتظ الفنادق بالوافدين من شتى الملل والنحل . بل ان مصلحة السياحة كانت ترصد بعض المكافآت الاضافية لتصيد أمثال المحـــكوم عليه من المارقين ، أو حتى من أنصاف المارقين وذلك كى يستثار الحماس فى القلوب فيتزايد الوافدون على المدينة طلبا للبركة أو للمتعة والترويح عن النفس .

وعلى الرغم من أن الوكالات والمسافرخانات فى المدينة لا تكرث كثيرا بتوفير النظافة والراحة للنزلاء ، فهى تتمتع باقبال تحسدها عليه فنادق العواصم الكبرى . ويتناثر حولها باعة النرمس والجميز والبطيخ والعصير والكشرى والثوم والحلوى الملونة التى تتراكم عليها أسراب الذباب مما يؤكد فى قلوب الزبائن حلاوتها . كما ان أعمال الهدم والبناء تسير جنبا الى جنب ، ورغم كل مظاهر الحضارة الحديثة الزاحفة مازال الناس يتنسمون عطر الماضى التليد .

وفى الايام التى لم يكن بالامكان تصيد أحد المارقين كانت تجرى فى ذلك الطريق المستقيم الطويل الذى يقطع المدينة رأسا ، ويقود الى الساحة خارج المدينة حيث تقلد الأوسمة لكل نابه ذى شأن وتنفذ أحكام الاعدام فى كل من صمم أن يمضى الى الهاوية مفتح العينين - كانت تجرى سباقات للخيل والحمير ، تثير منافسات حادة بين أصحاب الاصطبلات والجوكية والسماسرة والمتفرجين تصل الى حد تبادل الشتائم والتماسك بالايدى والتضارب بالهراوات .

على أن كثيرا من الامور تغيرت فى المدينة أيضا فدخلت الآلات الى الورش مثلا ، وزاحمت الصناع اليدويين الذين ورثوا الحرف أبا عن جد . كما لم تعد النرجيلات تصنع من الزجاج المحلى بل اخذ صناعها يستوردون زجاجات محلاة برسوم عصرية وألوان براقة . وأصبح الصياغ يستخدمون بورى البوتاجاز بدلا من بورى الكيروسين لصهر ذهبهم وفضتهم . حتى الكتب الدينية صارت تجلد بأغلفة طبعت عليها صور فاتنات بلباس البحر . واذا سئل المجلدون عن ذلك ، قالوا عنهن انهن ملائكة وحوريات ، ولا حرام فى هذا . تتغير المعالم والحكايات مع كل شبر فى المدينة ، ولكن هناك على أى حال أمورا جوهرية لا تتغير . فالعادات والتقاليد ناشبة فى النفس البشرية أظافرها . والضراوة باقية وتتزايد ، تتغير كما لا كيفا ، وعلى الأخص ما كان منها مرتبطا بالطقوس والشعائر ، فما زالت الضراوة تفرض سلطانها على الاقتصاد القومى ، فهذه لا يدخلها التحول ، ولا يطرأ عليها التغيير بسهولة . فهى مثل صخور الجرانيت التى تبنى منها قصور السلاطين والقضاة والجلادين وكاتمى الاسرار .

ترك الحداد كيره ، وجرى يشاهد الموكب . وترك مطعم الصناديق بالصدف ابرته الدقيقة ، وهرول صانعو براميل الطرشى . أما بائعة الرنجة فلم تبرح دكان أبيها ، فهى تعرف أنه فى مثل هذه

المناسبات حيث يخرج الناس للنزهة والفرجة تكثر مشترياتهم من الفسيخ والرنجة ، اذ تنفتح شهيتهم اليها . فهى الاكلات المفضلة فى الهواء الطلق ، وعلى النجيل الاخضر المنحول .

كان الموكب يتوقف أيضا من وقت الى آخر ، وينزل أحد أعضائه لاحضار كوب من الشاى الساخن أو لفة من العيش بالفول . وينتظره الموكب . فاذا عاد الركب الى سيره . كان هذا تقليدا مسموحا به مثلما يحدث فى الاوتوبيسات والتروليات عندنا . وليس المقصود ان هذا هو ذاك . ولكن ذلك لتقريب الامور الى الاذهان ، فعندما يتقادم العهد على أوضاع الحيـــاة يحتاج الذهن الى التشبيهات والمقارنات بينها وبين مايحدث فى الحياة المعاصرة حتى تبين الصورة بجـلاء .

كانت هذه المناسبات سوقا طيبة لعـــرض الممنوعات والمهربات والسلع المستوردة . وكان الاقبال على شرائها يتحول من شـدة الزحام الى مشاحنات وخناقات تستعمل فيها السكاكين . وبخاصة على بعض الادوية والمنبهات المصنوعة فى الخارج .

وكان البوليس يتغاضى عن هذه الامور ، ويغمض عيونه ويصم آذانه ويتجاهل مايرد من بلاغات فى شأنها . فهو من ناحية لا يريد أن يفسد من بهاء المهـــرجان وجلال الموكب ، ومن ناحيـــة أخرى فانه لو بدأ يكتب المحاضر ويزج فى الحبس . فان أوراقه ماكانت لتكفى لاستيعاب أسئلة واجابات التحقيقات ، كما ان الســـجون ما كانت ستتسع للوافدين عليها . فمن المعروف جيدا ان البوليس يقبض على اللصوص ومخالفى القانون ، اذا كانوا أقليـــة ، أما اذا تحولوا الى أغلبية فان البوليس — وهو فى خدمة الشعب دائما — يصبح عاجزا . ومن ثم تتحـــول الممنوعات الى مســموحات ، والمسموحات الى حقوق . والحقوق تكفلهـــا المواثيق والفرمانات ، وتدرس فى كليات الحقوق .

الأبنية العالية يغطيها لهذه المناسبة سعف النخيل وفروع الفـار . وعلى الشرفات رفعت الاعلام . وازدانت الدكاكين الصغيرة على جانبى الطريق الرئيسى الذى يمر به الموكب باللافتات المرحبة والمؤيدة .. فرشت الحوانيت الرمل أمام أبوابها وزحمت الرصيف بآلاف من الراديوهات والتليفزيونات والمكاوى والخلاطات ولعب الاطفال والادوات الكتابية والخـــردوات وتلال من أقمشـــة الديولين الاســـموكين والشاركسكين .. وصالون « الفردوس » للحـــلاقة المريحة وضع

اصصا من الزرع عند واجهته . كما كتب بالخط الكوفى وبحروف حمراء فاقعة على لافتة سمرت على الجدار المطلى بالجـير الابيض حديثا « بمناسبة الاعياد .. خلع الضرس بخمسة قروش ، والطهارة للفقراء مجانا » ثم عند الناصية تقابلنا لافتة كتب عليها « صابر .. سمسار .. خدمات خاصة لأبناء البلاد الشقيقة » ثم هناك سهم يشير الى زقاق جانبى كتب عليه « المأذون .. البيت الرابع على الشمال .. الدور الارضى ... » ثم بحروف مرتبكة أضيفت حديثا « استشارات عائلية بمناسبة المولد » .. ثم بعد ذلك بقليل يوجد محل جزارة « الناضورى » الاعرج وعليـه لافتة تقول « بناء على توجيهات وزارة التموين .. تقدم رءوس عجول طازجة بنصف الثمن » وقد سمر فوق الباب تمثال من الجبس لرأس عجل قرناه بلون الذهب ، وخضبت جبهته بلون الحناء ، وعقدت حول رقبته شرائط حمراء وتحته كتب « كل واشكر » وعلى مبعدة خطوات قليلة من جزارة الناضورى كتاب الشيخ حجاب الذى بذل جهودا طيبة لمحو الامية فمنح شهادة تقدير علقها على بابه ، وصار أهل البلدة يتندرون عليه قائلين « قد الكف يعلم مائة وألف » وبأعلى الكتاب فتاة ضريرة تطل من مشربية وعند آخر الدكاكين يوجد مقهى «سر من رأى» ،الذى يطل على الطريق الى ساحة الاعدام ، وهو ملتقى التجار والسماسرة والسياح والنخـاسين ولاعبى الورق . يتبادل الجمع الثرثرات عن الصفقات السياسية وما بلغته أسعار الوظـائف التى تباع وتشترى والمغامرات الحربية الظافرة والخاسرة ، عن البراكين والزلازل، والطاعون والامم المتحدة ، عن المجـاعات والفيضانات ، عن الشهب والـكواكب والصواريخ الموجهة ورحلات أبوللو ، عن القتلة وقطاع الطرق ، عن المعجزات والقديسين والملائكة والشياطين ومسرح الجيب ومخرجى الارواح الشريرة .. الارض سـعير يحترق فيه الخطاة الآثمون ، والسماء بعيدة المنال على البشر الأحيـاء الغارقين فى الرذائل .. أحاديث ليست قادرة على أن تضحك بل ان تجعل الرعدة تسرى فى العظام .. فلسنا سوى حملان فى قطيع ، أو أوتار فى عجلة دائرة ، أو ربما أيضا مسامير طاحونة ، لا يهدأ لهـا قرار . يلطف الجو فى المقهى العتيق ذى الطراز المغربى ملاحم قديمة وأقاصيص خليعـة يرتجلها الرواة وسط أدخنـة النرجيلة وفى الضوء المعتم بالابخرة وأدخنة المسك والعنبر . بينما الراقصات يحاولن برقصة «الكرنبة» و «بنت العمدة » و « عجين الفلاحة » اثارة الغرائز فى دماء الشيوخ

والشبان على السواء . ومن المطبخ تفد روائح الشواء .. والفطائر المدهونة بالزبدة .. سكالوب انتركوت .. فيلتو .. كستليتة ضانى .. بوفتيك .. مزاليكيا .. أرز بالكبد والكلاوى على الطريقة الفرنسية .. ان مقهى « سر من رأى » شاهد على ماض له دلالته . ولم يدخله التليفزيون بعد .

من درب المسمط خرج الموكب الى شارع قصر الشوق .

عاد العم للمحكوم عليه يقول :

ــ ان تكون اخلاقيا لا يعارضك أحد فى ذلك .. ولكن كن أخلاقيا بالقدر الذى يكفى لدرء المتاعب عن نفسك .. كلنا .. هكذا .. أرأيت ماوصلت اليه ، ياناصح ؟ الايمان مغامرة لن تكون عاقبتها الخسارة ..

بدا على المحكوم عليه كما لو كان يسأله « الايمان بماذا يا عمى » ؟

ارتبك العم وتلعثم :

ــ الايمان بماذا ؟ بماذا ؟! بكل ما يؤمن به الآخرون .. أم تريد أن تقول انك لست كالآخرين .. لست مثلهم .. على أى حال ، هذه آفتك .

رفع المحكوم عليه وجهه الى السماء مسبلا جفنيه وقال :

ــ العالم يتضخم ويتضخم دون توقف ، وبلا سبب ، ولا معنى ، ولا ضرورة ، ولا علة ، ولا غاية . الى أين ؟ شعرت بالخوف أول الامر .. ثم هببت ومددت يدى وفلت .. لا .. لا .. مستحيل هذا .. مستحيل أن تمضى الامور على هذا النحو .. وقررت أن أكون شيئا غير نفسى .. أو ان شئت الدقة .. وجدت النفس الاصيلة .. النفس الحقيقية .. وراء نفسى .. قبل هذا الشعور كان العالم فوضى .. ولقد اخترت .. وباختيارى أخلق ماهيتى .

عاد ينظر الى الارض مطرقا .

عقب العم مثبطا :

ــ عواطفك لا جدوى منها ، محاولاتك فاشلة .. انظر ماذا انتهت اليه حالك ، يافالح ؟ انت تجرى ولا تستطيع اللحاق بنفسك .. افتح عينيك .. أفق وأبصر الهوة التى عند قدميك .. ياحفيظ .. ياساتر أستر ! ..

حجب العم وجهه بيده ، ومضى قائلا :

ــ لا قرار لها . أنا يا رجل لا شأن لى بك .. كل مسئول عن نفسه .. ونفسه فحسب .. ألا تخجل .. من نفسك على الأقل ؟

كانت العيون على الجانبين ترصد حركات الموكب وتتابع خطواته ..

طوح المحكوم عليه بيديه عاليا كما لو كان يقول له « أنظر ، هأنا أمسك بالريح .. بلمستى يتنفس الحجر » .
رد عليهالعم غاضبا :
ــ تعود الى ألاعيبك ثانية .. تتجاهل نصح الآباء وحكمة الاجداد . قلت لك كن مراوغا فى الحديث .. اعتن بوسامتك وأناقة مظهرك .. مارس بعض الالعاب الرياضية .. التنس أو الكروكيه .. النوادى تملأ المدينة .. كلها أمور سهلة .. لكنك لا تتعظ .. عنيد أنت .. اشتر لك نياب سهرة .. لكنك تحب الجلوس الى موائد طعام لاطعام عليها . ترى عينك منعكسة فى قاع الطبق اللامع الفارغ فتقول هذه بيضة مقلية تكفى لافطارى . تمد يدك وتقطف النجوم من السماء وتقول انها كروم . دعك من أكل الأوهام وانعش أمعاءك الجـــافة بالنيفة والمشويات على اختلافها .. املأ رئتيك برائحة المحرفات ، فان الاله ذاته يحبها .
تمتم المحكوم عليه مترنما وغير آبه الى ما يقوله العم :
ــ مئات القناديل .. مئات القناديل الخفية .. تضىء السرداب .. المظلم الخرب .. مئات القناديل تضىء ..
لكزه الشرطى فى جنبه ، وقال :
ــ طريد ولا تشعر بالخطر يتعقبك .. تشرف على الغرق ولا تتعلق بطوق النجاة ..
وقال العم :
ــ تقسو على نفسك أشد القسوة ، وهأنت تفتك بها . تغط فى نوم ثقيل . أفق . أرجوك . لا ضرب السياط يوقظك ولا وخز الحراب يحركك ؟ هادىء البال ، فى كل الاحوال .
رفع المحكوم عليه عينيه ، وصوب للعم نظرة خرساء ، كما لو كان يقول له انى أطرح مجرد أسئلة .
حنق العم من صمت المحكوم عليه ، وقال :
ــ لا تفتح فمك .. فاذا نبست بكلمة فهى اللعنة .. تتحدث عن الحرية والمسئولية والضرورة .. تتحدث عن الجسد والروح . عن الموت والحياة والخطيئة .. عن المهانين والكادحين وثقيلى الاحمال وكل من ننبذهم .. صحيح اننا نستغلهم لكننا فى النهاية ننبذهم .. هم مجرد منبوذين اذن .. تقول انك البذرة .. ولا بد للبذرة أن تدفن .. وفى التراب تحيا وهى تموت كى تنبت الزهرة .. وخزعبلات أخرى لا نفهمها .. أو ان شئت الحق لا نريد أن نفهمها .. ولمــاذا

تفهمها ؟ .. هل يمكنك أن تقول لى ؟ خفف قليلا من غلوائك ، يا ابن أخى . خفف !

وصل الموكب الى أرض فضاء غير مسورة ، كان صاحبها يجمع ممن يريدون شققا للايجار مبالغ يسميها مقدم ايجار لخمس سنوات .. ولم يكن قد انتهى من جمع المبلغ المطلوب لاقامة العمارة ، فظلت الارض خرابا يمرح الاولاد فى أرجائها .. أكثر من خمسين ولدا وبنتا انهمكوا فى ألعابهم المفضلة .. ألعاب لا تحصى .. يمارسون زرافات ووحدانا كل الألعاب التى يمكن أن تخطر على بال : عسكر وحرامية ، النحلة ، الاطواق ، المحبوسة ، الكرة ، الاستغماية ، طاطى البصلة ، التعلب فات ، عريس وعروسة . وهم يقلدون فى ألعابهم الكبار ، ومن يريد أن يدرس الاخلاق الاجتماعية سيجد حقــلا خصبا فى دراسة ألعاب الأطفال .

رأى زيد أمامه أطفالا يجرون، ويقفزون ، ويتشقلبون، ويتزحلقون، حواديت ، جوز أم فرد ، كرسى السلطان ، شد الحبل ، مصارعة .. انقسمت الارض الفضاء الى ساحات جزئية لا حصر لها ، كل ساحة تقوم بذاتها، لكنها أيضا تتداخل وتكمل بعضها بعضا لتكون فى النهاية كلا متكاملا . وقد أثار ذلك فى عقل زيد تساؤلا ، هل الكل حاصل جمع العديد من الجزئيات ؟ هل المجموع هو الشخصية الوحيدة ذات الملامح ؟

عندما رأى الاولاد الموكب مقبلا تصايحوا . تركوا ألعابهم ، وجروا الى حافة الرصيف . قسماتهم متشابهة . الوجه دائرة ، والعينان ثقبان ضيقان ، والأنف مبطوط ، والفم رسم بمشرط أو بمقورة ، وعلى الرأس فروة من الشعر الاكرت . ما من طفل له سمة تميزه . الحركة تقول أكثر مما تقوله الملامح .

التفت المحكوم عليه اليهم .. وابتسم لاول مرة .. مد يده نحوهم، كما لو كان يريد أن يربت على رءوسهم ذات الشعر المفلفل المغبر لكنهم انكمشوا .. تراجعوا فى ذعر .. صاح أحد الصبيان ، وربما كان قد سمع هذا الحديث عن جدته :

ــ احذروا يده المسلوخة ! لمستها تحيلكم الى سحالى !

وبعضهم جرى بعيدا .

لم يغضب المحكوم عليه . اتسعت الابتسامة الحزينة على شفتيه ، وقال بهدوء :

ــ أنتم .. ربما فهمتم .. يوما .. ما .

مضى الموكب مبتعدا ، عاد الاولاد الى التجمع رويدا رويدا . ثم ما لبث أن علا صياحهم وتهليلهم من جديد ، وهم يقفزون ويتضاحكون ويتصارعون مثل أشبال أليفة لم تدب الضراوة الى أنيابها ومخالبها بعد . ولكن ذات يوم ــ ولتسأل فى ذلك أى حارس فى بيت الأسود بحديقة الحيوان ــ ستتبدل الطباع .

مرت بجوار زيد امرأة ترتدى ثوبا فاخرا أحمر . تبدو من طبقة أعلى قليلا من الطبقة المتوسطة . فريدة فى أناقتها ، وسط كل هؤلاء الاجلاف الذين يعج بهم المهرجان . امرأة بضة من سلالة الشراكسة الذين حلوا بالبلاد فترة ، يلمع على صدرها كردان ثقيل من الذهب . تسير خلف زوجها العجوز ، تغطى رأسها وكتفها بطرحة من قماش بنفسجى شفاف . مدت ذراعها ووضعت راحتها على كتفه ، كما لو كانت تسلس له القياد ، يسير بها أينما شاء . بينما هو بضغطة من يدها يقف وبدفعة يسرع الخطا . عندما استدار زيد لفرط عطرها الفواح رآها تتلوى مثلما تتلوى أبرع الراقصات ، وتأتى بايماءات الى شاب يجلس بمقهى « سر من رأى » أشارت اليه بأصبعها اشارة فترك الشاب نرجيلته ونهض يدفع الحساب على عجل . فهم زيد ــ ولم يكن الامر يحتاج الى ذكاء وقاد ــ أن المرأة تسير وراء زوجهـــا مدعية الاحترام له والتوقير لكنها فى الواقع لا تريده أن يراها وهى تخدعه .

هز زيد كتفيه وقال لنفسه أول الأمر « طظ . وماذا يعنى لو عرف ؟!» ثم عاد وغير رأيهواكبر فى المرأة اللعوب حرصها على مشاعر زوجها . هى فى النهاية لاترغب ان يمتلىء قلبه اليابس بالحسرة ، وربما سقط على الارض ميتا ، رغم ان ضعف النظر فى أهل البلد ليس طبعا بل هو تطبع .

كان الناس يروحون ويغدون . يلتقون فيقفون يثرثرون ويتجادلون ويشكون ويغتابون ويطلقون النكات والاشـاعات والشتائم . الباعة يعرضون بضائعهم ، والكثير منها مهرب . الاولاد يلهون وقد ارتدوا ملابس العيد . وعنـــد النواصى رجال جلســوا القرفصاء على الارض ، وانخرطوا فى لعب القمار . كل ذلك بانتظار قدوم الموكب من أحد الشوارع الجانبية التى كان مقررا أن يمر بها وفقـا لمخطط مرسوم كنوع من اجراءات الأمن المشددة ، كانت تتبع أصـــلا فى مواكب السلاطين ، ثم أصبحت تتبع فى مواكب المحكوم عليهم ايضا . وكانت هناك مبارزات كثيرة ســـاخرة تدور بالمقشـات والنبابيت

بين الحورسيين وأنصار ست . ولم اللوم ؟ أولئك الذين يشقون طوال أيام الاسبوع اذا أقبلت مناسبة مثل هذه فهم يلعبـــون ويمرحون ويضجون بالضحك ، وينخرطون فى الرقص دون أن يكترث بهم أحد . الن تأكل الهموم حياتهم ، غدا ؟

القصار والطوال والشـــبان والشيوخ ، والاصـــحاء والمرضى ، والضعاف والأقوياء ، سليمو البنية ومشوهوها ، المنشرحون ومنقبضو الصدور ، كلهم تجمعوا على جانبى الطريق ، فالمشهد مجانى ، والفضول فى أعماق القلوب لا يقـــاوم ، وما أحلى قزقزة اللب والتهـــام الترمس أثناء عرض مثل هذا يشنف الآذان فيه عازفو القرب من الهواة بالاضافة الى الموسيقات الرسمية المصاحبة للموكب المهيب .

الجنود بستراتهم الحمراء يجوبون المكان فى جولاتهم التفتيشية ، أيديهم على مقابض سيوفهم . وويل لمن يشتبهون فيه مجرد اشتباه .

أشجار النخيل السامقة المتمايلة فى وقفتها الرشيقة النبيلة ترقب بدورها الموكب الماضى فى طريقه المتعرج ، وتتابع حركة الجموع التى تتجه الى مكان الموت . تلك الهضبة الجدباء القاحلة فى آخر المطاف .

غلى فى أعماق زيد السؤال الممض وهو يتابع الموكب الصاخب : ما مصير ذى النظرات الحالمة ؟ مامصير ذلك الوديع الذى يحمل صمته واباءه على كاهله ؟ .. سيصعدون الدرجات ، ويحيطون عنقه النحيلة بحبل المشـــنقة ثم يفتحون البئر العتيد تحت قدميه .. سيطلق صرخته ، ويسلم روحه للذى أرسله الى هؤلاء البشر الثرثارين الشرفاء غلاظ الاكباد .

نظر زيد من حوله . ها هو الشجر والصـــخر الصلب والطريق الوعر . جبل المقطم الرائع من بعيد بصخره ودروبه بمغاراته وكهوفه بجلاله وهيبته ، الاشجار والسحب والسماء والتربة والطير وكل شىء ينبض بالحياة ويرفض أن يلتفت أو يصغى الى ما يحدث للانسان من آلام أو تعذيب أو موت . فى اللحظة التى يموت فيها أكبر الشهداء تتفتح الازهار مثلما تتفتح كل يوم ، وتفرد الطيور مثلما تفرد كل يوم . النسمات تداعب الاغصان ، وعبير الزهر يعبق الجو مثل كل يوم . كل شىء فى طريقه المرسوم يجرى ، ولا يوقف من جريانه أن يساق فرد أو الوف الافراد الى حتفهم . الدنيا هى الدنيا ، وألوانها هى الوانها ، وأشكالها وكائناتها هى هى ، سواء كنا فى أتعس لحظات

العمر أو كنا فى أسعد ساعات الحياة .

تذكر زيد كتابا من الكتب التى قرأها وقد قرعه أبوه أشد التقريع آنذاك عندما وجده يقرأ ، فقد كان لا يحبذ الكتب المترجمة .. كان ذلك منذ أمد طويل .. عشرين عاما ربما .. لكن الزمن يخلط التجربة الانسانية فى بوتقة مدهشة . وها هو يقفز أمام عينيه عاليا .. فوق .. فوق رءوس كل هؤلاء الغوغاء .. بل فوق رءوس قاضى القضـــاة ورئيس الجلادين والمحكوم عليه .. يقفز عاليا .. ايكاروس .. هل اهتمت الامواج الزرقاء به عندما هوى اليها محطم الآمال؟ظلت الطبيعة فى سقطته ساحرة كما كانت فى ارتفاعه ، ومضت الحياة اليومية العادية كما هى . وغدا عندما ينفض هذا الموكب وترفع جثة المحكوم عليه من حبل المشنقة وتلقى جيفة تنهشها طيور السماء ووحوش الارض ، سيعود كل شىء الى سيره العادى . ايكاروس المسكين هدمه قانون الجاذبية فهوى من سماء رائعة الالوان .. تماما مثل سماء هذا اليوم .. وربما كان كل يوم .. الى بحر أروع ألوانا . اضطربت صفحة الماء هنيهة ثم استكانت، وعادت الى هدوئها كما لو لم يكن قد حدث شىء . كما لو لم يكن قد تحطمت آمال انسان طموح . لا شىء يسير وفقـا للآمال والاحلام .

نظر زيد الى السماء . كان طائر الموت القاتم يرفرف على الموكب فى خطواته البطيئة . تردد فى أعماق زيد صوت مدرس الرياضة فى مدرسة العباسية الثانوية « يجب أن نكون موضوعيين فى نظرتنا الى الوجود يا أولاد .. يجب أن ننظر الى الوجود نظرة علمية .. فاذا نظرنا الى الخارج ، الى ما حولنا ، فلا يجب أن نرى أوهامنا تجرى أمام ناظرينا متقمصة كل الموجودات » حط طائر الموت على المشنقة التى بدأت تقترب كثيرا . تأمل زيد السماء بنظرات شاردة . كانت صافية الاديم من بعيد .. من حيث أتى الموكب .. ثم أخذت زرقتها تقتم .. وتصير بنفسجية .. ثم امتدت معتمة قاتمة منذرة بالسوء فوق هضبة الاعدام .

أظلمت السماء فجأة . تكاثفت السحب . دوى الرعد . وانهمر المطر . أخذت الجموع تنفض . تطلب الاحتمـــاء . بسط البعض الجرائد الصباحية على رءوسهم . أفسد البلل المساحيق على وجـوه النساء . أصبحت الارض زلقـــة . وقع البعض فتلطخت ثيابهم وأيديهم بالاوحال . وكان لزاما أن يعودوا الى بيوتهم لتغيير ملابسهم .

ـ لم يكن أحد يتوقع هذا التغيير المفاجىء فى الجو .

ــ لم نكن نتوقع ذلك .. والا لاتخذنا حيطتنا ، وجلبنا معنا مظلات وافية . حرام ان يضيع علينا متعة الموكب .

سألت امرأة قصيره بلا رقبة ولا وسط :

ــ ألن يذاع على شاشة التليفزيون ؟

ضرب رجل اصلع كفا بكف :

ــ كالمعتاد خابت تنبؤات مصلحة الارصاد .

استطرد ساخرا رجل ذو حاجبين مرفوعين :

ــ طلعت علينا الصحف فى الصباح بأن الجو سيكون صحوا بوجه عام والرياح جنوبية غربية معتدلة .

ــ يعزو المسئولون فى الارصاد الخطأ المتكرر هذه الايام الى قدم الأجهزة وعدم موالاتها بالتجديد لنقص الاعتمادات المالية .

ــ لكن عمال الارصاد لا يكفون عن تقديم الشكاوى لرفع أجورهم .

ــ اشتد المطر . لا نستطيع المقاومة .

أخذت الجموع تنصرف بخطا وئيدة ، ما لبثت أن أسرعت ، والناس يولون الادبار . أقفرت الطرق وآوى أهل المدينة الى بيوتهم .

بلغت سرعة الريح تسعين ميــلا فى الســاعة . السيارات انقلبت وارتطمت بحوائط المبانى ، وأخشاب النوافذ بألوانها المختلفة طفت على برك الماء والطين والزيت . بائعة البالونات طارت عاليا متشبثة بخيوط بالوناتها الملونة .. ومن جيوبها تساقطت الصور الخليعة ، وتناثرت فى صفحة السماء ، فقد كانت المرأة العجـــوز تبيع للأولاد البالونات ولأهلهم تلك البضاعة التى لم تكن محرمة فى الاعيـــــاد والمواسم .

تحطمت المناضد والمقاعد وانقلبت الدكك والأرائك وانهدت الشوادر .. وغطى الطين كل أرجاء الارض .. وسرحت المياه فى الاروقة والممرات ووصلت الى أركان بعيدة مظلمة لم يصل اليها من قبل أحد .

شمر زيد سرواله ، وأحكم أزرار سترته . تعلقت عيناه بالمحكوم عليه . كان منظره والمطر يتساقط عليه أكثر نبلا بثوبه الممزق وقدميه العاريتين . صار شعره الاشعث أكثر لمعانا وقد بللته مياه السماء . كادت الجموع المهرولة من كل جانب تجرف زيدا معها . دفعته الى الخلف والى الامام والى اليمين واليسار . ولكنه كان مصمما على البقاء .

عندما لم تر الزوجة جدوى من التأنيب انصرفت مع العم . استندت الى ذراعه وحثته على السير . لم تبق الام طويلا ايضا ، فقد كانت

تخشى ان تزداد آلامها الروماتيزمية اذا ابتل جسمها وبعدئذ لن يغمض لها جفن طوال الليل من أوجاع كالمناشير ، وبخاصة ان دهان « أبو شنب » المدهش فى ازالة أوجاع العظام ماعاد يستورد ، واذا وجدت منه بعض الزجاجات المهربة فاغلب الاحيان تكون مفشوشة .

بقى المحكوم عليه وجها لوجه مع قاضى القضاة وحاشيته . أصدر قاضى القضاة أمره الى الشرطى بأن يذهب الى المخازن الاميرية بسرعة لاحضار مظلة كبيرة أو خيمة يحتمى بها ريثما تنتهى طقوس المحاكمة .

انتهز كاتب الجلسة الفرصة ، وتعلل بأنه سيرافق الشرطى ليسهل له مهمته .

عاد الشرطى وحده بعد قليل . طلب أمرا مكتوبا من قاضى القضاة كما تقضى بذلك لائحة المخازن . هكذا قال له وكيل المخزن بعد أن سأل أمين المخازن ، الذى سأل بدوره مدير عام المخازن ، الذى اتصل بوكيل وزارة المخازن ، الذى كان مجتمعا باللجنة العليا للمخازن .

أعطاه قاضى القضاة ورقة ممهورة بامضائه . جرى الشرطى راجعا الى المخزن ، بعد أن حيا القاضى التحية الرسمية . لاحقه صوت القاضى ، وقد بدأت الرعشة تدب فى أوصاله :

ـ اسرع ، يا رجل ، حتى لا نصاب بالبرد .

عطس القاضى . والتفت الى المحكوم عليه متوسلا :

ـ انكر التهمة ، يارجل ، حتى نحكم ببراءتك .. وننتهى .. انها مجرد اجراءات .. اجراءات .. أتسمع ؟

لم يجب المحكوم عليه ، كما لو لم يكن الكلام موجها اليه .

أردف قاضى القضاة يسأله :

ـ أليس لك من صديق ، يارجل ؟

قرأ قاضى القضاة فى وجه المحكوم عليه اجابة .. كان كمن يقول ليس لى فى هذا الوجود المبهم سوى صديق واحد .

تهللت أسارير القاضى ، فقد ظن أنه سيذكر احد الكبار الذين يمكن أن يتوسطوا له ويضمنوه وينتهى الامر .

أشار المحكوم عليه الى الطبيعة من حوله ، قائلا :

ـ وانى بجمالها الخلاب افتدى كل هذا القبح اللاصق بنا .

خاب ظن القاضى ، لكنه رأى أن يمضى فى النصح طالما لم يعد الشرطى من مهمته بعد :

ـ عليك أن تطرح النظرة الساذجة جانبا ، يا رجل ، وترفع بصرك الى أعلى مراتب النجاح الاجتماعى ، على الدوام . انظر الى . كنت

ابن فلاح مثلك . لم يكن أبى يملك سوى فأسه . أما الآن فأنت ترى الأشرطة التى تتدلى من ثوبى المبطن بأغلى أصناف الحرير المستورد . ثم أنظر أيضا الى كل هذه الحاشية المهيبة التي تسير فى معيتى . يكفى أن أشير لك الى هذا الرفيق .. هناك بالصف الثالث الايمن .. انه الجلاد الاول بادارة المساعدين الملحقة بالمجلس القضائى الاعلى . ليس ثمة من يجهل دراساته المستفيضة فى الطب الشرعى والنواميس العرفية والحيل الجنائية .

لم يجب المحكوم عليه كما لو كان لم يسمع شيئا مما قيل ، خيم الصمت . الغروب يطبع قبلته الارجوانية على هامات النخيل العالية .. الليل الزاحف ينشر غلالته البنفسجية .. والسحب تلقى ظلالها الرمادية على الحقول .. الريح تتسلل، وتهمس بين الاغصان الخضراء همساتها الغامضة .

مضى المحكوم عليه ، يقطع الصمت ، ويقول متجاهلا ماحدثه به قاضى القضاة :

ــ هذه المناظر هى رفيقى وسلواى فى عزلتى .

قال القاضى ما بين ناصح ومهدد ومتوسل :

ــ انت جبان تحيا حياة الانزواء والانطواء .. أنظر الينا .. نحن شجعان نتحرك فى وضح النهار يفهمنا الآخرون ونفهمهم .. وكل شىء على ما يرام .. حمدا وشكرا .. نمضى فى الركب هادئى النفوس ، واذا أتيحت لنا الفرصة طعنا من الخلف .. وقفزنا على الاكتاف .. تقلدنا المناصب وتصدرنا الآخرين .. وكلنا راض بهذا القانون ..

استدار قاضى القضاة الى حاشيته ، وسأل بلهجة من يصدر أمرا :

ــ هل منكم من هو غير راض بهذا القانون ؟

أجاب الجميع بصوت واحد بالنفى ، مؤكدين انه ليس ثمة من هو غير راض بهذا القانون .

عاد قاضى القضاة يقول للمحكوم عليه :

ــ أرأيت ؟ وهل يختلف الناس حول البديهيات ؟

رأى رئيس الجلادين أن يتدخل ، رغم انه فى العادة مقتصد فى كلامه . انضم الى قاضى القضاة فى محاولة اقناع المحكوم عليه حتى لا تطول الاجراءات فى هذا الجو المكفهر .. وكان يخشى بدوره الزكام والتهاب الحلق فهو يعانى من حساسية مزمنة فى الأنف . قال بلهجة معسولة :

ــ ليس الامر بالصعوبة التى تتصورها ، يا رجل . قناع محكم .

هذا كل ماهو مطلوب .. يصرف مع بطاقات تحقيق الشخصية من مكاتب السجل المدنى ، ويباع بمكاتب البريد ، وادارات المستخدمين.
قال قاضى القضاة :
ــ أشد ما يشقى الانسان ألا يعرف قانون اللعبة ، أما اذا عرفه ، فاللعب بعد ذلك هين ، أما أنت ، فما هى لعبتك ، لا أدرى . ماقانونها؟! لا أفهم .. تخبط وتخبط .. وهأنت تصل الى آخر الشوط خاسرا .
عصر أكمامه التى تشربت بماء المطر . عطس ومضى موضحا :
ــ ابتسامات عريضة .. انحناءات .. كلمات رشيقة .. ان تكلفك الكثير .
نظر الى السماء وقال :
ــ ياه ، انه الطوفان ، حقا !
ثم استطرد بلهجة ضاغطة :
ــ هنا ، يا رجل .. ابدأ صفحة جديدة .. حتى ننصرف لحالنا .. ألا تفهم اننا مواطنون صالحون .. لنا أولاد بانتظارنا .. ونتعجل العودة اليهم سالمين آخر النهار ؟!
نفض قاضى القضاة المياه عن طربوشه وقال :
ــ بامكاننا أن نوقف التنفيذ .
ثم انشغل بنزح المياه التى ملأت جيوبه وحذاءه .
مضى رئيس الجلادين يقول مغريا :
ــ أما ما وراء القناع فهـذا شأنك أنت .. لن يجشم أحد نفسه مشقة ازاحة القناع .. المهم لا تتركه يسقط عن وجهك .. هـذا كل ماهو مطلوب منك . تأكد نحن لا نبغى الأذى . المهم الا يقرصنا أحد .. مجرد اجراءات .. نحن أضعف من أن نقوى على الايذاء ونحب الملاطفة مثل القطط ..
مسح قفاه الذى سالت عليه خيوط المطر ، وقال :
ــ كل شىء خدعة كبيرة .. لو كنت تعلم ..
ألقى قاضى القضاة بالكلمة الأخيرة ، وهو يجفف حاجبيه الكثيفين :
ــ الأصل فى الانسان القناع .. أما ازاحة القناع فهو ممنوع بنص القانون ..
كان من الاشياء القليلة التى يعرفها زيد الذى يرقب المشهد باهتمام ان الكلمات لا تؤخذ مجردة ، بل تتحكم الظروف المحيطة بها فى ابراز كثير من ابعادها .
عاد الشرطى يجرى خاوى الوفاض . قال لاهثا :

ـ لا توجد بالمخازن خيام ، ياسيدى .
سأله القاضى :
ـ ولا مظلات ؟
أجاب قائلا :
ـ تعرف الاختلاسات الاخيرة ياسيدى .
انهمر المطر بشدة . أظلمت السماء . كانت كأنها تفرغ كل ما فى مقلتيها الواسعتين من دموع .
قال القاضى بلهجة حاسمة :
ـ لابد اذن من التأجيل . ولننج بجلدنا .
جرى القاضى . جرى الجميع . غابوا عن الانظار . خلت الحلبة . خيم سكون لا يعكره سوى نشيد المطر .. ثم لوح قائد الاوركسترا السماوية للسحب .. ايذانا بانتهـــاء النشيد .. ابتعد الرعد .. انقشعت الغمامات .. وتصدر السماء قوس قزح .
جرى زيد نحو المحكوم عليه ..
أشار الى الافق البعيد ، وقال له مهللا :
ـ اهرب ، ياسيد . هذه فرصتك .
نظر المحكوم عليه الى زيد بعينين صافيتين عميقتين ، ولم يجب .
قال زيد متوسلا :
ـ أهرب . قد لا تتاح لك فرصة مثل هذه . سرعان ما سيصفو الجو .. وسيعودون .
لم يحرك المحكوم عليه ساكنا .
قال زيد مشجعا :
ـ لا تنظر وراءك . اذا ما ابتعدت من هنا ، ستجد ألف طريق الى بلد آخر .
لم يجب .
قال زيد بحزن :
ـ كان عليك أن ترحل . ألا تفهم انه كان عليك أن ترحل منـــذ أمد ؟ لو لم يكن السن قد تقدم بى لرحلت معك .
رمقه المحكوم عليه بنظرات مثل السياط . وقال :
ـ لا تعرف كم تعذبت حتى وصلت الى قرارى .
تراجع زيد ، وقد دب فى قلبه الخوف .
قال المحكوم عليه :
ـ على أن أسير فى طريقى الى النهاية . لن يوقفنى أحد .
صوب اصبع اتهام الى زيد :

ــ ولا أنت ، يا ابن الاموات !
نظر فى اتجاه المشنقة :
ــ أنا ذاهب اليها .. بخطا ثابتة .. بيقين .. سأصعد اليها .. وأضع الحبل فى عنقى .
ثم التفت الى زيد ، وقال :
ــ حريص أنت عليها ؟ على صحبة مخلوقات تفوص فى الطين كل يوم ؟
شابت صوته رنة من الكآبة :
ــ ذاهب الى هناك .. بارادتى .. فلتكن شاهدى .. أما اذا كنت منى حقا فاتبعنى ، ولن تكون بحاجة الى شهود .. الشجاعة لاتحتاج الى شهادة .
قال زيد فى حيرة :
ــ هناك حيث تذهب .. حيث نذهب جميعا .. يخيم ضباب كثيف .. كل شيء يبدو أشباحا .. والرؤية معتمة ..
قال المحكوم عليه :
ــ عليك ان تؤمن بحقيقة الحلم .. دائما .
ركع زيد ، امام المحكوم عليه ، ورفع اليه ذراعيه مستجديا :
ــ لكن الالم ، ياسيد .. الموت ، يا معلم .. كل هذا الضعف ..
نظر اليه المحكوم عليه نظرة ضارية ، ما لبثت أن لانت وحل عليها اشفاق وحنان .
ثم قال :
ــ الحياة محاصرة بصحراء شاسعة من النعاس .
تشبث زيد بثوبه وصرخ :
ــ لا .. لا .. الرحمة ..
مد المحكوم عليه يده ، وربت على رأسه فى مودة بالغة ، ثم خلص ثوبه من قبضته ، وقال :
ــ تحب ، لكنك لا تستطيع أن تعطى ..
صرخ زيد :
ــ كيف ؟! كيف ؟!
مضى المحكوم عليـــــه فى طريقه . وقبل أن يصل الى المشنقة ، التفت الى زيد . ومن بعيد ، قال بصوت هامس :
ــ بعد حين ستنسانى .
وابتسم ابتسامة وديعة ، مثل جرح شقه سكين حاد . غطى زيد وجهه براحتيه ، وبكى بكاء لم يبكه أحد قط .

تنويعات على لحن السفر



تنويعات على لحن السفر

- ١ -

عالم لا معنى له .. أو ربما له معنى لا تعرفه .. أو قد تعطيه معنى غير معناه الجوهرى .. تجرده من معناه ثم تقول انه لا يعنى شيئا .. عالم يعلو بعضه بعضا .. يبدو بعضه من ثنايا بعض .. طبقة تحت طبقة .. وطبقة فوق أخرى .. عناقيد عنب .. براكين لهب .. انحسر الوهم .. بدا أديم الزرقة .. بعدت المدائن .. ولت .. حيوانات تقترب .. ضئيلة .. ممزقة .. تقع صريعة .. وتنحسر .. جبل مغطى بالثلوج .. من بعيـــد .. مدينة جليدية .. بيضاء المخيلة لا تعى شيئا .. أبيض على أزرق .. والرمادى وسط بينهما .. الابيض يتفجر .. يتناثر نتفا قطنية .. يزول .. كل شيء يزول .. لا .. لا شيء يزول .. كل شيء يتحول .. كل شيء يتشكل .. .. يعود .. مدينة تطل على خليج .. مدينة شبحية .. سكانها قراصنة غرقوا .. وراح معهم سرهم .. ترى ، من يهيم الآن فى الدروب ؟ من يهيم الآن فى الأروقة ؟ فى الغرف الصامتة.. وراء الابواب الموصدة والنوافذ المغلقة ... من يجوس ؟ من يتنفس ؟ وداعا ، أيتها المدينة الشبحية .. مرحبا بالازرق .. صفاء الازرق .. سلام فى الابيض .. ولغز أبدى مستغلق هنا وهناك .. كل شيء من كوة .. بحيرة .. حائط مهدم .. أسوار تتداعى ثم تتسمر أنقاضها فى مكانها بصمغ سحرى .. الرمل برتقالى مائل الى الحمرة .. نحن نهبط .. آثار أقدام على الرمال .. ألوف الأقدام .. مرت من هنا .. تركت على الرمل آثارها عبرت الى الجانب الايمن .. هنـــاك السور الوطيء ذو الفتحـــات .. وعلى الأديم الأصفر المنحنيـات والتعرجات جسد أفعى خرجت من البحر تسعى .. وأينما سعت رسمت ..

هل يمكنك أن تميز السحب من الموج .. أو حتى من دخان

سيجارتك ؟ عالم يمتد منبسطا أجوف .. يزول ويأتى غيره .. يتشكل كل لحظة .. يهدم بعضه بعضا .. يفر بعضه هاربا فى أثر بعض .. يتداخل بعضه فى البعض الآخر .. ويتكامل اللامعنى .. ثم لا يلبث أن يتهاتر ويتبدد .. عالم له لونه وخطوطه وأحجامه .. وظلاله أيضا .. تركنا الظل على الارض .. الظل يبتعد .. ونحن نبتعد .. على الشجر والحقول وأسقف البيوت الظل يجرى .. يتضاءل .. يتلاشى .. تبدو الزرقة حافة تحيط بالارض البرتقالية .. ثم .. فجأة يبدأ المنظر غير الحقيقى حقا .. جبال القطن على صحراء زرقاء يحدها اطار الكوة .. نقاط ضئيلة .. تحت .. على البساط الازرق .. ربما كانت قوارب .. وكيف لك أن تعرف ؟ كل شىء يولى .. بعد لحظة .. يتشكل المنظر من جديد .. بلا مقدمات .. ولا منطق .. وما الحاجة الى ذلك الشىء الفث .. المنطق ؟ تتحول الجزئيات .. لكن الكل واحد .. بدأ يكتسى الآن باللون الوردى الخفيف .. يصبح جبل القطن فى جانب منه ورديا .. وفى الجانب المقابل تزحف الظلمة .. ولكن الابيض ما زال نقيا .. بالنبل والقداسة يوحى ..

ما الذى يعنيه هذا العالم ؟ انه يستعصى على فهمك .. ربما لأنك تراه جزئيا مهما اجتهدت .. فاذا تجلى لك فى تمامه — وهو ما يبدو متعذرا — فقد يسترد المعنى .. عالم يلمع ثم ينطفىء .. يتوهج .. ثم يبهت ويعتم كليل يعقب نهارا هو فى ذاته ليل .. أنت تعكس عليه الكثير .. تتصوره عواطف وأفكارا .. يومىء اليك ويخاطبك .. تستنبط رموزا .. وأحاجى .. ايماءات ودلالات .. هى منك وليست منه أبدا .. مرآة هو ليس الا .. بل ليس حتى مرآة ..

ليس شيئا .. زرقة هو بكل درجاتها .. مداد منسكب .. ذهب منصهر سائل عند الحواف الفيروزية . نقاط بيضاء على ثوب أبيض .. .. الحوائط بيضاء لا تحصى .. الحصون والقلاع رصت لملاقاة عدو مبهم .. لا شىء يتحرك الآن .. ربما لأننا نتحرك .. كلا ، كل شىء يتراجع ببطء .. لا يكاد يدرك .. البساط الازرق تجعد .. ألوف الاقدام لكائنات مضت .. انقشعت البقع البيضاء من على الثوب الأزرق .. رنة القيثار تسقط .. تتهاوى .. تضيع فى العالم السفلى .. عظام حيوان أسطورى تآكلت جثته .. حلقات العمود الفقرى بقيت .. والمفاصل أيضا .. حقل من زبد الصابون .. من العجين الابيض .. ممر مائى يخترق هيكلا عظميا لحيوان منقرض .. انتهت

هنا أعمال البحر .. أعمال الصفاء .. وبدأت الصـــخور والارض الحجرية الحمراء يكسوها الزرع الاخضر .. ثم عمت الظـــلمة .. أصبحت الكوة زجاجا أسود .. معتما يصد العين .. الى الداخل .. فالخارج ليل أسود يقطعه خط شفقى أحمر .. تزحف من فوقه الظلمة .. خط برتقالى يصد جحافل الظلام بلا أمل فى الغلبة ..

عالم يوجد لذاته دون أن يستجدى فهما .. انه قائم .. قائم حقا .. قائم وكفى .. أهو قائم حقا ؟ .. يتعداك .. يبهرك .. يشجيك يعذبك .. يغرس اليأس فى قلبك .. وينبت الامل بين ضلوعك .. فى الآن ذاته .. انه حيرة .. وبعـــد الحيرة ؟ يسرع اليك التساؤل الأثيرى مثله .. الهلامى مثله .. هل هناك مابعده ؟ هل هنـــاك ما وراءه ؟ لن تلبث أن تقول « من أسأل ؟ » لا تسأل .. امض فحسب معه .. تقبله على حواسك .. مثلما تتقبل وجنتاك نسمات رطبة فى أمسية حارة .. وعلى جبينك الملتهب تطبع قبلة .. دون أن تعرف من أين هبت تلك النسمة .. وأيضا دون أن تعرف الى أين تذهب ؟

ــ ٢ ــ

وصلنا باب المدينة عند الاصيل .. كانت الشمس تصبغ أسوارها بأضواء وردية وبنفسجية..درجات متآكلة..حوائط ..احجار سقط عنها طلاؤها ، وأنطفأ البريق .. نوافذ بلا أخشاب .. بواك وأقواس .. آبار نضب ماؤها ، وتراكم فى قاعها التراب .. دروب لا تؤدى الى مكان .. عتبات أصبحت بمحاذاة الارض .. مجرد أشكال هندسية هنا وهناك .. دوائر ونصف دوائر .. ثقوب فى الجدران وهوات عند الاقدام .. غرف تحتية .. أقبية .. مستودعات .. سراديب انهارت سقوفها ..

من بقايا نحاول أن نكون كلا .. نفض لغزا .. شظايا كئوس .. أزرار صدئة .. جرار كبيرة وصغيرة .. أوان .. حبات قلائد زرقاء وقرمزية .. مدى أخضر لونها وعلاها الصدأ .. أطراف أثواب .. ربما ازدهت بها حفلات وسهرات .. جزازات من قماش .. دمى .. أقراط وخواتم .. قواطع ونصال ربما ارتكبت بها جرائم .. وأختام صدقت على صكوك بالغفران .. أو ربما على صكوك بالاعدام صدقت .. علب احتوت على مساحيق ودهون وعطور .. تبخر محتواهاوجفه .. مع الاهل والخلان لفظت بدورها الروح .. مرايا لم تعد تعكس ما أمامها .. بل ظلمة وعتمة صارت تعكس .. ربما حزنا على فقدانها

الأحباب والصحاب .. ربما تمردا على من فى أعقابهم جاءوا .، أو ازدراء ممن يقفون الآن أمامها .. انها مثل البشر ــ بعض البشر ــ وفيه تموت .. بعد أحبابها رفضت أن تدوم .. وما لبث أن انطفأ لمعانها وعتمت .. فى الصناديق الزجاجية قلائد ثقيلة .. سلاسل وقيود .. بقيت تحكى وهى خرساء .. تومىء دون أن تفصح .. تحرك فى الاعماق أشجانا .. وتنبش ندوبا لا تعرف الالتئام .

آلهة .. آلهة جبارة .. تطل بقايا صورها من على القباب والجدران .. انمحت أو كادت .. وأصبحت تنظر الينا تستدر الرثاء .. زالت هيبتها .. خبا وقارها .. وجبروتها ولى .. آلهة تندثر .. بطولات تتبدد وكأنها لم تبذل بسخاء وعن طيب خاطر .. آلهة بائدة .. اله واحد لا يزول .. انه الزمن .. عادل فى عطائه .. بلا محاباة .. صارم .. محقق.. لا يرحم البعض دون البعض الآخر..يدوس بقدمه فيسحق الامراء كما يسحق الخدم .. يسحق الآلهة كما يسحق العباد .. وهو الاله الذى لم يقم له معبد .. لان الوجود كله مملكته ومعبده .. وهذا الاله بدوره نسبى . فهو من صنعنا .. ويحيا فى مخيلتنا وحدها ..

قال لك ، وهو يشير الى أسفلت الطـريق الممهد تحت قدميك ، « أنت تسير على جثة » تلفت حولك منقبا الارض بعينك .. « جثة نهر » .. الانهار اذن مثل البشر تموت وتحيا « كيف هذا ؟ » هنا .. محل هذا الطريق المتعرج الممتد منحدرا من الجبل الى طرف المدينة كان يجرى نهر . شحت مياهه ذات يوم ثم نضب .. أدركته الشيخوخة بعد أن كان يتدفق مزهوا بحيويته وشبابه .. وذات يوم قرروا دفنه .. ردموه .. أهالوا عليه التراب .. وأحكموا اغلاق التابوت بالحجر والاسمنت والقار الذائب .. ووري النهر الحبيب الذى طالما ورد ذكره فى أغانى الشعراء وأناشيد المغنين .. هــذه الارصفة ممتدة على جسده .. والاسفلت مصبوب على صدره .. وأعمدة النور والبرق واشارات المرور مفروزة فى كفنه .. هــذه النوافذ والشرفات التى تضىء بالليل أنوارا ملونة تطل على قبره .. وعندما يوغل الظلام وتهدأ فوق الاسفلت جلبة البشر تسمع أنفاس رتيبة خافتـــة .. خافتة حتى لا تكاد تسمع .. حتى لتكاد تكون وهمــــا .. أنفاس مثل تيار ماء ينساب سرا تلتقطها أذن مرهفـة وفية لماض أصبح كذبا .. هنا ، كان ماء يروى عطشا ؟ سقى كروما

وزيتونا وشجرا ؟ مئات الكلمات المبهمة العذبة مثل ماء نهر ..تبخرت مثل القطرات سحبا .. انتشرت مثل النجوم .. مثل الحصى .. مثل حبات التراب .. التى يسحقها الاسفلت ويدفنها .

قف ، أيها المار « قف واذرف دمعة على المحارب الشجاع الذى أخذه اله الحرب فى صحبته ورحل ! » . « بهذه الكأس سأسقيك ماء قراحا عندما ألتقى بك فى الابدية ! » . « حافظوا على جسدى ، فيه أنوى أن أقابل خالقى ! » كم يحب الانسان الكذب .. يتفنن فى ابتداع الخيالات والآلهة ، وكم بالأوهام يتلذذ . ما مصـــدر كل هذا ؟ .. عدم الثقة ؟ الخوف من مجهول لا يقوى على لقائه الا بأكذوبة تشد من أزره ؟ أم هى طبيعة الانسان ، خائفا كان أم مطمئنا ؟ ومتى كان الانسان مطمئنا .. لا أعرف انسانا مطمئنا .. اعرف من يسكرون .. عندما يودعهم النهـــار .. حتى يلقوا الليل عن الوعى غائبين ..

مشاهد الوداع تترى .. وداعا أيها الابن .. وداعا أيها الجد .. وأنت أيها الزوج وداعا .. وداعا يا ابنتى .. هات يدك أقبلها يا أبى وداعا أيها الصديق ، انى أترك جوادى الحبيب فى رعايتك .. وداعا يا سيدتى .. أمتك من بعـــدك لن تذوق للفرحة طعما .. وداعا أيهـــا الاخ الشقيق .. وداعا يا أماه .. وداعا .. الوداع فى كل لغات البشر كلمة لها معنى .. وداعا ؟ بل الى اللقاء .. الى اللقاء قل .. الفراق واقعة .. الفراق مر .. الفراق خلاص من عذابات كثيرة .. الفراق لقاء ..

ما أجمل أن تعود الى بيتك .. تحمل ابنك الصغير بين يديك .. وتضع ذراعك على كتف زوجة طالما الفتها .. وتقبل خد أمك الذى تغضن وصار مثل تينة يبست .. المعنى الكبير للحياة هو «الفراق» .

ـ ٣ ـ

بعد المتعة يأتى التعب .. بعد اللهفة يأتى الملل .. بعد الامتلاء يأتى الخواء .. كل شيء الى نهاية .. كل ما كان هناك ليقال قيل .. وكل ما كان مقدرا أن يرى رؤى .. كل النكات السمجة ..والثرثرات بل والحكم أيضا .. نفدت .. لم يبق على الشفاه سوى ابتسامات تحجرت .. ونظرات تنم عن الرغبة فى الانصراف .. العينان المتعبتان المحاطتان بهالتين من السواد .. ترتفعان الى السماء .. وتنقبان

أرجاءها .. ثم ينكس الرأس الاشيب..ويزاح كم القميص عن المعصم .. وتتركز العينان على الساعة ذات الزجاج المشروخ . تتابعان عقرب الثوانى وهو يدور سريعا .. من أعلى الى أسفل .. ثم من أسفل الى أعلى .. مضت شبه دقيقة .. الوقت يقترب على أى حال .. ارتفعت العينان المتعبتان من جديد الى أعلى تبحثان بين السحب عن شيء ليس هناك بعد .. تفتشان مثل شعاع فنار يكتسح الافق .. تعود النظرات تجرى على الارض المنبسطة التى أتقن تخطيطها .. وفرش على مساحاتها اللونان الاخضر والرصاصى — وتناثرت على حوافها بانتظام بقع منوعة تحمل رموزا واشارات .. لغة من بين ألوف اللغات .. عادت النظـــرات تلتقى بالنظرات .. هل آن الاوان ؟ ليس بعد ؟ ثمة تأخير ؟ كالمعتاد .. الصوت ينادى .. الايدى تشرع فى التلويح .. والقبلات يرسل بها على عجل .. تنهال .. ثم يقذف بها .. والدعوات وأطيب التمنيات أيضا .. تتجمع الهـامات والحقائب .. تشرع الاوراق فى الايادى .. وتقترب الاكتــاف من الاكتاف .. ويمضى الجميع من الباب الضيق داخلين .. الواحد اثر الآخر .. الأقدام تزحف على الارض .. تدقها .. تضغط عليها .. وتودع الحجارة السيقان المبتعدة..المبتعدة..دوى الصوت من جديد.. أوامر من جديد .. توقف الماضون .. التفتوا وراءهم .. من أين يأتى الصوت ؟ الاوامر تصدر من جديد .. تصعد الاقدام درجات السلم تختفى الهامات وراء الجنـــاح المشرع مثل سيف .. ويبتلع الباب الصغير الكل .. وفى النهاية الكل فى واحد .. أغلقت الابواب .. عادت الاسطوانة تدور .. والى المجرد عدتم .. ليتم قول النبى .. من اللامحدود نبدأ .. واليه نعود ..

من شكاوى القلب الميت



من .. شكاوى القلب الميت

— ١ —

مع شديد ألمى ، أشكر الاقدار التى لم تسمح أن أكون فى يوم من الأيام ذيلا لأحد .

عندما يقابلوننى يحيوننى باحترام ، ويقولون « أســـتاذنا .. أستاذنا .. » ولكننى أعرف اننى لست أستاذا لأحد . يمتدحون حتى خطى ، بينما أنا نفسى لا أقـــوى فى كثير من الاحيان على فك طلاسمه .

وهم أيضا يعرفون أننى لست أستاذا لأحد ،لكنهم حذرون ـــ شىء مضحك ، أليس كذلك ؟ ـــ يتوقعون أننى يوما من الايام ـــ من يدرى؟ ـــ قد أكون شيئا يخشى جانبه ، أو ينتفع من ورائه ، أو على الاقل يعمل له حساب .

كل أعمالى لا تكتمل ، كل أحلامى تظل ناقصة ، فى حالة شروع ، أو فى حالة العمل المخفق الذى يقال عنه « كان يجب أن يكون على غير ذلك » . ورغم حماسى الشديد ـــ الذى لا يفوقنى فيه أحد ـــ لكل ما آليت أن آخذه على عاتقى ، هناك دائما الحلقة الناقصـــة ، الخطوة المفقودة ، أو الاخفاق بعد التمام .

أعمال لم تتم تملأ أدراجى وأرففى ، ورأسى تطن بمئات الافكار التى تتزاحم لتخرج الى حيز الوجود ، الى حيز الاخفاق ، أو عدم الاكتمال الذى حدثتك عنه .

عندما أسمعهم يقولون لى باكبار انهم يسعدون بانتاجى المتعدد أحس خلف كلماتهم أنهم يسخرون منى ، حتى هو يقول لى « انتاجك متعدد الجـــوانب .لا أحد ينكر ذلك » التفت اليه منزعجا أعاتبه « أنت أيضا تسخر منى ؟ » يقول لى « كلا ، ماكنت أقصد » حقا ، ليس ماهو أشد ايلاما من الكلمات غير المقصودة .

آه ، كانت اللحظات التى أجلس فيها الى مكتبى ، ويمتد بى الوقت

بين كتبى ، ويوغل الليل ، وتهدأ الحيـــاة من حولى ، ويسكن كل شيء ، عدا أنفاس الليل الصـــاعدة الهابطة ، خافتة لا يسمعها الا القلب الواجف ــ كانت هذه اللحظات هى حياتى . ينزاح عن كاهلى فيها كل الاثقال ، وعن روحى تنمحى كل الادران ، وأنسى حتى نفسى وتعاساتى ، وأغوص ، أغوص الى أعماق صامتة براقة ، غامضة ، حافلة بأسرار ، هى لى ، لى وحدى .

لكن ...

لكن ؟

لكن الآن أصبحت أهرب من كتبى وأوراقى . لحظة الجلوس الى مكتبى لحظة اعدام . أحس بالالم الساخن يثقب معدتى ، وكأننى أشوى على سيخ فى النار . ماعدت أطيق . أصبحت أهرب ، الى المقهى أول الامر ، ثم ما عاد المقهى يطفىء ألمى . مضيت أهرب الى هنا والى هناك . ثم صارت الشوارع تتقاذفنى ــ كما ترانى . قل لى ، بالله عليك ، هل قدمنا شيئا ؟ هل نفعتنا الكتب التى أفنينا شبابنا ورجولتنا فى أحضانها ، وهل نفعت غيرنا ؟

ــ وهل هناك ماينفع ، يا أخى ؟

ــ يجب أن يكون ثمـــة شيء نافع غير ما نفعله . يجب أن يكون هناك ماهو جدير بأن نحيا من أجله ، وهذا الجدير بأن نحيا من أجله ليس هو ولا شك ما نفعله . انه أمر لم نفعله ، وكان يجب من زمن أن نفعله .

ــ دائما هناك ماهو واقع وما يجب أن يكون . لكن هناك دائمـا الامل أيضا .

ــ انفراجة صغيرة فى سماء ملبدة بالغيوم . شيء بعيد المنال .

ــ المعجزة هناك على الدوام .

المعجزة ؟!

كلنا بانتظار معجزة . نمد أيدينا ونصيح . نغمض عيوننا ونبتهل علنا نلقى الخلاص . ولكن لماذا نعطى الخلاص ؟! لماذا يؤبه بنا ؟! نحن لا نستحق أصغر معجـزة ، فللهـلاك نحن . من الدنس نبتنا ، وفى العار نلغ ، والى النار نقذف .

لكن ــ دائما هناك لكن هذه ــ لكن لابد أن هناك خلاصا ما . مستحيل أن يكون هذا خاتمة المطاف .

كثيرا ما أقول هى السبب ، سامحها الله . هى التى كانت تتوسل

الى أن أربط نفسي بالمكتب ، وأستذكر دروسى لعل الشهادة تنتشلنا من محنتنا . كنت أشفق عليهـــــا ، فأنكب على كتبى كى أنجح . لا للنجاح فى ذاته ، بل لأرضيها ، لأخفف عنها ، وأدخل شعاعا من الفرح على قلبها الملبد بالفيوم . وماذا كانت النتيجة ؟ سرى السم فى دمى وأعصابى وعقلى ، وأصبحت ملازما للكتب طوال حياتى . لا أكتمك لو لم يكن الاشفاق عليها فى عزلتها يمزق أحشائى ويشدنى لكنت الآن على غير ما أنا عليه من حال . ربما صرت الى حال أسوأ ، لا أنكر ذلك ، ولكن من يدرى أيضا ؟ ربما كنت انطلقت على سجيتى، صعلوكا كما كنت فى بعض لحظات نسيانى لمسئوليتى ، وكمــــا أنا فى أعماقى وعلى حقيقتى ، ولأحسست للحياة طعما. أو على الاقل لأحسست لها طعما غير طعمها هــذا العطن . هــل ذقت الطين مرة على شفتيك ؟ ألم تقـــع منكفئا فى أرض موحلة قط ؟ أنا وقعت ، وما زلت أقع ، وأقع كل يوم . من أحلامى التى تتــكرر أننى أقــع منكفئا على وجهى فى الطين ، وعندما أنهض أمسح عن جبينى ووجنتى ما لصق من طين . لكن الطين الذى على شفتى لا ينمحى ،فأناأمسحه وأدعكه بشدة ، ثم ما يلبث أن يعود الى مكانه على شفتى مستقرا على أسنانى ولثتى ، وطرف لســانى أيضا . قلمــا مرت ليلة دون أن أحلم هذا الحلم . ترى ماذا يعنى ، هل تعرف ؟

ألم أشعر بالخوف ؟

شعرت به فى سنى حياتى كلها . ارتجفت ، وهممت بالتراجع ، بالقاء قناعى والاستسلام ، لكننى كنت على الدوام أشعر بنظراتها تدينني مقدما . تصرخ فى أذنى « ليس الامر متعلقا بك فحسب » على الدوام مضيت أعلى الصوت الخــــارجى ، وان كان ذلك لم يعصمنى من أن أتهم كثيرا بالانانية ، وبأننى مثل السمكة فى أعمــاق اللجة لا تسمع ولا تتكلم .

عالم ميت ، هذا ما حولى . عالم غير قادر أن يولد ، هذا ما فى .. هشيم وأغصان يابسة تراكمت مغطية بذرة تشق بطن الارض ، ساعية للخروج الى ليل شنق قمره على شجرة توت جدباء .

انت على وفاق مع نفسك ، على الاقل ؟

.. ..

— ٢ —

أبحث فى اصرار عن المعنى الكامن وراء أيامى .

أفرغ ذكرياتى . أنشد أن أتحرر .

أستحضر الأماكن ، أستحضر الشخوص ، بل والاشياء الصغيرة أيضا .

ازور البيت . كان على البحر يطل وعلى السحب . أجوس الغرف التى استحالت مناظر داخلية تحيا فى خيالى . أسير على الشاطىء الرملى . أين خطواتى ؟ محاها الموج ؟ ما زال طعم الملح على شفتى ، وعند الأفق أشباح سفن ، وعلى أصابعى الرطوبة لزجة . أين ذلك العالم الصدىء ؟ كل شىء كان فيه زاخرا ، نابضا ، موحيا بأمل .

كيف أصبحت ما أنا عليه ؟

لماذا لم يكن بامكانى أن أصبح شخصا آخر ؟

فى قبضة المتبدد أحيا . انتزع نفسى من هذا الكئيب الخانق ، لم يعد الحب ممكنا ، أضحى الوجود ثقيلا زخما .

نحو الماضى أولى ، الذكرى خلاص ، عبر الصور فلأهرب .

القبض البرونزى الصغير على باب البيت رأس أســد ، تلمس أصابعى تموجات لبدته . المصــباح المدلى من السقف حمامة على الارض لا تحط ابدا . الطبق الصينى على حائط غرفة الجلوس — هدية جدى — رسم عليه بالبرتقالى والاصفر وقليل من الازرق ، جبل جلل الضباب هامته ، وأحاطت بسفحه بحيرة ساجية . ترتيب البيت لا يتغير ، وأيضا طقوس أهله .

لكن أكان ذلك حقيقة ؟

وفد الصوت يقول :

— تنقب عن خرائب . عن ظلال واشباح خرجت تبحث . عن أوهام وخيالات تتحدث . تتمتم شفتاك عن عالم مفقود .

— أين ذهب كل شىء ؟ كيف اندثر ؟ كيف انطفأ وتبخر ؟

عاد الصوت يقول :

— انت تغش نفسك . على الاحضان الدافئة اللينة تؤثر معانقات باردة خاوية . أهى لعبة تلعبها ؟ مع نفسك تلعبهــا ؟ بل هى لعبة ضد نفسك تلعبهــا . حاضرك يصبح وضعا معكوسا . انت تنبش الجراح القديمة ، ولا تتركها تلتئم أبدا .

خيم الصمت .

اصبحت الفرفة من حولى اكثر ظلمة .

جاء الصوت يسألنى :
ـ من أجل ماذا تكتب ؟ من أجل الاستحواذ على ذلك اللاشى الذى لا يمكن استرداده ؟
أطرقت .
أتبين جيدا وأنا أخلو الى كلماتى أننى لم أعرف كيف أحيا .
لم أكن أريد أن أتخلى عن شىء . كنت أرتعش دائما خشية أن أفقد شيئا . وفى النهاية وجدت ، أنا عاشق الاوهام ، نفسى وحيدا أعزل . وجدت ـ أنا المتشبث العنيد بكل شىء ـ اننى كل شىء أفقد .
أصرخ :
ـ هذا العالم مصاص دماء . وبقائى على قيد الحياة كى أعاين انسياقى الى الخراب مغلوبا على أمرى .
سأل الصوت :
ـ لماذا لا تقاوم الرغبة فى الكتابة ؟
قلت :
ـ تسبينى الصور العطرة ، الراقدة حية فى تابوت الكتابة الاسود. تزيد من نهم ذاكرتى التى فى عزلتها لا تتعزى .
قال الصوت :
ـ الصور المنعكسة تتماوج فى البركة النرجسية ، دون أن تكتمل أبدا .
ـ عالم فريد من الصور ، على نفسى ، آليت أن أبعثها .
خفت الصوت مبتعدا .
ـ لكنك أصبحت باختيارك لهذه الصور ضحية .

فى الأعماق رعب يحدثه افلات حبات الرمل من الأصابع المطبقة .
تقدم العمر وأوغل . ولا شىء مؤكد .
هل ألقى قلمى ؟

((تمت))

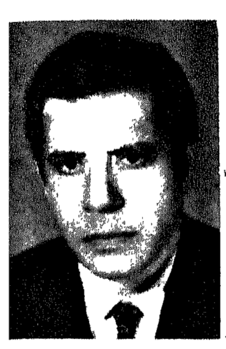
هذه الرواية

من المحاور الرئيسية التي تدور عليها قصص هذه المجموعة « المرأة » نبع السعادة والشقاء معا . ومن خلال الملاحظة الواقعية والخيال الطليق تبدو المرأة مخلوقا من لحم ودم ، كما تبدو ايضا مغلفة بغموض مستمد من جوهرها ذاته تقول احدى قصص المجموعة « ليس الحب عشقا للجسد وحده . هل تعتقدين ان المرأة هي جسم المرأة ؟ » وفي قصة اخرى يقول الرجل للمرأة « انت محارة ، ينصت فيها من يحبك الى صوت البحر الذى ليس فيها » .

والمرأة تجربة اتصال بالوجود ، يغامر الفنان من اجلها . يضحى اشقى الاشقياء ، ولكنه يتبين في النهاية انه غامر من اجل « صورة » من اجلها حدق في النهاية ، وصارت عيناه فحمتين . وقد يحب الفنان تمثاله اكثر مما يحب اى امرأة . يهرب بتمثاله ، وينسحب بعيدا يقضيان العمر يستمع كل منهما الى انفاس الاخر . والفضاء ايضا بشموسه ونجومه واقماره قد يصبح جسد امرأة يحتضن من يطلع اليه مغامرا .

ولكن قصص المجموعة لا تقف عند « المرأة » بل تتصدى ايضا وعلى الاخص لذلك الحس الاخلاقي الكامن في اعماق الانسان . فيرفض الهزيمة ، ويتفتح زهرة حمراء دامية عند النصر . ويتامل البطل في احدى القصص موقف الانسان لحظة المصير فيقول « اذا كنت منى حقا فاتبعنى . ولن نكون بحاجة الى شهود . الشجاعة لاتحتاج الى شهادة »

ابطال يتحركون بحنين الى اهداف بعيدة ، تحاصرهم على الدوام مخاوف ليلية ، والكون من حولهم كرة لا تكف عن الدوران . كل لحظة على محور مختلف . كأنها سكرى من الوجد او مخبوطة بريح عاصفة هوجاء . عالم يبعث على النشوة والاهتزاز .



د . نعيم عطية

الثمن ١٢ قرشا

